

ڪامل ڪيلاني

أشهر القصص

روبنسن ڪريوسو



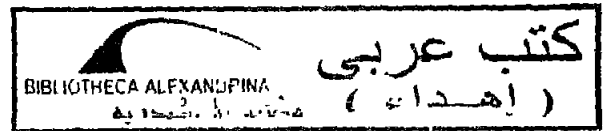
NC

Ch  
823

ڪيل  
ر



دارالمعارف



رقم التسجيل ٥١٦٨٢

اهداءات ٢٠٠٢  
أ/ رشاد كامل الخيلاني  
القاهرة

كامل كيراني

أشهر القصص

# روبنسن كروزو

الطبعة الثانية عشرة



دار المعارف

ch

800

2A

c 2

---

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

## مقدمة بقلم جان چاك رُسُو

« ما دُمنا لا نَسْتَعْفِي عَنِ الْكُتُبِ ، ولا مَعْدَى لَنَا عَنِ الْمُطالعةِ ؛ فَثَمَّةُ كِتَابٍ هُوَ عِنْدِي أَنْمَنُ دُخْرِي فِي التَّرْبِيَةِ الْإِسْتِقْلاليَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ . وَسَيَكُونُ أَوَّلَ كِتَابٍ يَقْرؤُهُ طِفْلي « إِمِيل » . وَسَيُصْبِحُ - وَحْدَهُ - كُلَّ مَكْتَبَتِي . وَسَيَرَى فِيهِ - عَلَى الدَّوامِ - مِنَ التَّرَايا البَاهِرَةِ ما يَدْفَعُهُ لِإِحْلالِهِ أَسْمَى مَكَانٍ سَيَنْدُبُهُ .



وسَيَظَلُّ هَذَا الْكِتابُ مُعَدَّةً فِي هَذَا الْبَابِ ، وَيَظَلُّ كُلُّ ما عَداهُ - مِنْ كُتُبِ الْعُلومِ الطَّبِيعِيَّةِ - حَواشِي وَتَعْلِيقاتٍ عَلَيْهِ . فَهُوَ أَصْدَقُ مِقياسٍ نَقِيسُ بِهِ مَدَى نِجاحِنا فِي الْحِياةِ ، كما نَقِيسُ عَلَيْهِ أَحْكامِنا الَّتِي نُصْدرُها . وَسَيَظَلُّ - كَذَلِكَ - مُتَجَدِّدَ الرُّوعَةِ وَالْأَثَرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَقْرؤُهُ ، ما دامَ لَنَا ذَوْقٌ لَمْ يَتَطَرَّقْ إِلَيْهِ الْفَسادُ .

« جان چاك رسو »

تُرَى ما هُوَ هَذَا الْكِتابُ إِذَنْ ؟

لَمَلَهُ كِتَابُ « أَرِسْطُو » أَوْ « بَلِين » أَوْ « بُوْفُون » !  
كَلَّا ، لَيْسَ كِتَابُ أَحَدٍ مِنْ هؤُلاءِ ، بَلْ هُوَ كِتَابُ « رُوْبِنْسَن كَرُوزُو » .

جان چاك رُسُو



## إلمامة

لم ومعيناً في اقتباس نظرية ربط بمض المواد الدراسية بمض .

وقد ولد مؤلف هذه القصة « دانييل ديفو » بمدينة « لندن » عام ١٦٦١ م ، ومات في ٢٦ من إبريل سنة ١٧٣١ م . وكان مشهوراً بالصدق والأمانة .

وكان اسم أبيه « جيمس فو » .  
وقد ظل اسم المؤلف - منذ نشأته إلى أن بلغ الأربعين من سنه - « دانييل فو » ، ثم تغير بعد ذلك ؛ فأطلق عليه الناس اسم « دانييل ديفو » . وكان لهذا التغير قصة طريفة ؛ هي أنه كان متعوداً أن يمضى بحوثه ومقالاته بالحرف الأول من اسمه ويردده بالاسم الثاني منه كاملاً هكذا : « د . فو » ؛ فتعود الناس أن يتطوقوا باسمه هكذا : « ديفو » .  
ثم غلب ذلك الاسم عليه ، لذيوحه وخفته على السمع وجمال موسيقاه ؛ فأصبحوا يسمونه منذ ذلك الحين « دانييل ديفو » .

وليس لدينا أبناء وثيقة عن نشأة هذا الكاتب النابغة ، كما أننا لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرته الأولى . وغاية علمنا أن أباه كان قصاباً يعيش في « لندن » ، وأنه قد عنى بتعليم ولده وتثقيفه العناية كلها ، ولم يأل جهداً في تمهده بالدرس والتحصيل على خيرة معلمى عصره ، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة

تمد قصة « روينسن كروزو » من أشهر القصص العالمية التي كتب لها الخلود . وقلما تجد فتى - أو فتاة - من يتكلم الإنجليزية في أى بلد من بلاد العالم ، لم يقرأها في شغف وسرور لا حد لها ، وهو مبهج بتلك القصة الفاتنة ، التي تشرح له كيف غرقت السفينة ، ومات من فيها ، ونجا واحد بمفرده من ملاحيا ، وعاش في جزيرة مقفرة لا أنيس بها . وكثيراً ما يسأل الطفل أبويه عن دقائق القصة وتفاصيلها .



« دانييل ديفو »

وقد اتخذا رجال التربية أساساً لتثقيف الأطفال ، لأنها تمودهم الجهد والدأب ، وتنشئهم على الحياة الإستقلالية أحسن تنشئة . وقد جعلوها أساساً لنظام الكشافة ، كما اتخلوها مرشداً

وكان لاقتراحاته تلك أكبر أثر في نفس « بنيامين فرانكلين » ، الذي قرر - صراحة - أنه استفاد أكبر فائدة من البحث الذي سبقه إليه « ديفو » منذ عدة سنوات ، وقد حمد الحظ السعيد الذي قاده إلى هذا البحث في مكتبة أبيه .

وقد اتصل بالملك « وليم الثالث » ، ودافع عن سياسته ، فذاع صيته .

ولما مات « وليم الثالث » آلمه موته ، وعده خسارة فادحة . وانتهز خصومه الفرصة وتآلبوا عليه ونكلوا به . ثم عطف عليه الملكة « حنة » ، بعد أن توسط له أحد الوزراء ؛ فظلت تشمله برعايتها حتى ماتت .

### كيف اشتهر ديفو؟

أما شهرة « ديفو » العظيمة ، فكانت بدؤها قصيدة نظمها في الدفاع عن « وليم أورنج » : ملك إنجلترا حينئذ ، رداً على قصيدة نظمها أحد الشعراء في التهمك به ، فأكسبته عطف الملك وحب الشعب والحكومة ، وأحرز منصباً جليلاً في عام ١٦٩٤ م .

وأبى إلا أن يزحم وقته بالعمل ، فأنشأ مصنع طوب كبيراً ، ولكنه لم يوفق فيه لكثرة أعماله . ثم مات « وليم أورنج » في عام ١٧٠٢ م ، ففقد « ديفو » بموته أكبر نصير ومشجع له .

\* \* \*

وفي عهد الملكة « حنة » لقى « ديفو » كثيراً

من عمره ، أرسل إلى إحدى جامعات « لندن » ليتم ثقافته . وهكذا تفقه المؤلف في الدين ، وبرع في علوم الرياضة والجغرافية والتاريخ وما إلى ذلك ، كما أتقن خمس لغات . وقد وفق إلى كتابة كثير من البحوث الرائعة : من دينية واجتماعية وإصلاحية وسياسية ، فكانت سبباً في إذاعة مواهبه ونبوغه بين معاصريه .

\* \* \*

وكان عصره عصر اضطرابات وثورات . وقد اشترك في بعضها ، وعرض نفسه لأخطار القتل والسجن والتنكيل . فأثر الحرب إلى « إسبانيا » ، حيث استخفى عامين ، ثم عاد إلى وطنه . وساعده الحظ ، فتزوج في « لندن » . واشتغل بالتجارة ، فلم يكتب له النجاح فيها ؛ لانصرافه عنها إلى الكتابة والبحث . ولم تمر عليه سبع سنوات حتى أرقه الدين الذي أربى على سبعة عشر ألف جنيه . ولكن ثقة دائنيه به قد ساعدته - فيما بعد - على أداء هذا الدين الجسيم .

ثم رحل إلى « برستول » ، حيث أنشأ صحيفة باسمه ، وكتب فيها كثيراً من اقتراحاته الاقتصادية المشيرة ؛ فأخذت بها بلاده ، وأقرت آراءه فيها . وكان يحث مواطنيه على إنشاء الطرق ، والمصارف الاقتصادية للفقراء ، وما إلى ذلك من تنظيم الخلل الناجمة لتعليم جمهرة الشعب .



من العنت والإرهاق ؛ فتأول خصومه في بعض مقالاته ما شاء لهم الحقد والهووى . وانتهت محاكته بسجنه ، وتفريجه غرامة فادحة في أواخر يوفية سنة ١٧٠٣م .

وقد شهر به خصومه ، ولكن ذلك لم يقلل من إعجاب منصفيه الذين عرفوا نبل قصده وشرف غايته . وقد كتب في مجته عدة مقالات نفيسة . ولما خرج من السجن أنشأ صحيفة أخرى نالت أكبر النجاح ، وظلت تصدر إلى عام ١٧١٣م . وكالت أول أمرها تظهر مرة في الأسبوع ، فرتين ، ثم ظلت تصدر تباعاً ثلاث مرات في كل أسبوع .

\*\*\*

وقد لى «ديغو» كثيراً من الاضطهاد والعنت ، وتمرضت حياته للقتل ، ثم عاد بعد ذلك إلى خدمة الحكومة . وفي عام ١٧١٤م فصل من عمله ، وعاد إلى التمرض للإعنت مرة أخرى . وتألّب عليه أعداؤه ، ودبروا له كثيراً من الدسائس والمؤامرات ، ورموه بالأنانية . فأنشأ صحيفة جديدة أسماها : « الدعوة إلى الشرف والعدل » . ودافع عن مبادئه وأغراضه دفاعاً مجيداً . وكانت هذه الصحيفة خاتمة حياته السياسية . ثم ساءت صحته وألح عليه المرض ، ولكن بنية جسمه القوية ساعدته على التغلب على متاعبه وأمراضه ، فاسترد صحته بعد قليل .

وقد ألف كثيراً من البحوث والمقالات والرسائل في الدين والحكومة والوطن . ثم ألف في أخريات أيامه نخبة من الكتب الشائقة التي أقبل عليها

الجمهور أيما إقبال . هو قد أدرك بفطرته تعلق الجمهور بالقصص ، وشدة تأثره بها ، وتهانته عليها ؛ إذا كانت صادقة الوصف والتحليل ، دقيقة في تصوير الحياة . فنال بقصصه نجاحاً عظيماً ؛ لأن قصته كانت تحلق دائماً في جو مجرى خلاب يزينه الصدق والدقة والإخلاص .

\*\*\*

وفي عام ١٧١٥م ألف كتاب « معلم الأسرة » فنال قسطاً كبيراً من النجاح والديوع ، وأقبل عليه الجمهور . ثم ألف كتابه الخالد « روبنسن كروزو » وهو أشهر قصصه . وقد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة : « حى بن يقظان » . ونشر القمم الأول منه في أبريل سنة ١٧١٩م ، وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره .

وقد لى هذا الكتاب من الإقبال والشهرة ما لم يكن يحلم به «ديغو» ، وأصبح حبيباً إلى كل نفس . ومن العجيب أنه لى كثيراً من المناصب والصعوبات في البحث عن ناشر ينشره له في أول الأمر . وليس في قدرتنا أن نعلم كم ربح من كتابه ، وإن كنا نستطيع أن نعرف مدى نجاحه العظيم ، فقد نفذت منه أربع طبعات متوالية في أربعة أشهر متعاقبة . وبعد زمن قليل ظهر القمم الثاني من القصة ، فلقى من الرواج والنجاح والإقبال مثل ما لى سابقه . وهكذا ظفر «ديغو» بال شهرة عن طريق هذا الكتاب ، ولم يظفر بها عن طريق بحوثه السياسية والدينية الكثيرة ، على أن له عدة

كتبه حظاً من الخلود كما رزقت قصة « روبنسن كروزو ». ولقد كانت كتبه شائعة جذابة ، ولكن ليس لها سحر هذه القصة ، وروعة هذا الملاح الذى كتب له أن تمرق سفينته وأن يعيش في جزيرة مقفرة .

\* \* \*

وقد ساعده ما ربحه من المال - لقاء كتابته - على أن يقضى بقية حياته مستريح البال ، بعيداً عن الفاقة . فابتنى قصرأ فاخراً ، واشترى عربية وجياداً ، وعاش عيشة راضية . ولكن صفوه لم يدم ؛ فقد نهكه مرض النقرس ، وضايقه عقوق ولده ؛ فعجل ذلك بموته لما استولى عليه من الغم . ودفن في «لندن» في الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٧٣١م

كامل كيرتون

مؤلفات أخرى .  
وقد سار على نهجه بعض الكتاب ، ولم يقدر لهم الفوز ولم ينجح من بينهم غير كتاب « روبنسن سويسرا » أو « الأسرة السويسرية » الذى ألفه « رودلف نيس » أستاذ الفلسفة في جامعة « برن » . وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص ، ينجون من الفرق ؛ فتتألف منهم أسرة سميدة متعاونة ، يظللها الوئام والحب ؛ فتتغلب على العقبات والمصاعب .

\* \* \*

على أن « ديفو » له عدة مؤلفات أخرى ، نذكر منها كتابه عن « الطاعون الهائل » الذى انتشر عام ١٦٦٥ م . ولكن لم يرزق أى كتاب من

تمهيد

## مَقَدِّمَاتُ السَّفَرِ

١ - أُسْرَةُ « رُوَيْسِن »

كَانَتْ وِلَادَتِي فِي عَامِ ١٦٣٢ م بِمَدِينَةِ « يُرُوك » الَّتِي اتَّخَذَهَا أَبِي  
مَوْطِنًا ثَانِيًا لَهُ ، بَعْدَ أَنْ كَسَبَ مِنَ التَّجَارَةِ مَكْسِبَ طَائِلَةً ، وَجَنَى<sup>(١)</sup>  
ثَرْوَةً عَظِيمَةً ، كَفَلَتْ لَهُ عَيْشَةً رَاضِيَةً .

وَكَانَتْ أُسْرَتُنَا مُؤَلَّفَةً مِنْ : وَالِدِي الشَّيْخِ ، وَأُمِّي الْمَجُوزِ ، وَثَلَاثَةِ  
أَبْنَاءِ كُنْتُ أَصْغَرَهُمْ سِنًا .

وَقَدْ قُتِلَ شَقِيقِي الْأَكْبَرُ فِي مَعْرَكَةِ حَرَبِيَّةٍ ، وَسَافَرَ الشَّقِيقُ  
الْأَوْسَطُ إِلَى حَيْثُ لَا نَدْرِي ؛ فَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ ، وَلَمْ نَعْلَمْ عَنْهُ  
- بَعْدَ ذَلِكَ - شَيْئًا .

---

(١) جمع .

وَعَنِي أَبِي عِنَايَةً كَبِيرَةً بِتَعْلِيمِي ، وَنَشَأَنِي أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ ، وَزَوَّدَنِي  
بِكَثِيرٍ مِنْ نَصَائِحِهِ الثَّمِينَةِ ، وَاخْتَارَ لِي أَنْ أَتَفَقَّهُ فِي الْقَانُونِ<sup>(١)</sup>  
وَلَكِنِّي كُنْتُ شَدِيدَ الزُّهْدِ فِي دَرْسِهِ ، وَكَانَتْ نَفْسِي مُنْصَرِفَةً عَنْ  
ذَلِكَ كُلِّهِ .

### ٢ - حُبُّ السِّيَاحَةِ

هِيَ أُمْنِيَّةٌ وَاحِدَةٌ ، طَالَمَا تَمَنَيْتُهَا ، وَرَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ ، طَالَمَا وَدِدْتُ  
تَحْقِيقَهَا . فَقَدْ شَغِفْتُ<sup>(٢)</sup> بِالسِّيَاحَةِ وَرُكُوبِ الْبِحَارِ ، وَتَمَلَّكَ  
عَلَيَّ حُبُّ السَّفَرِ كُلِّ نَفْسِي ؛ فَلَمْ أَعُدْ أُصْنِعْ إِلَى لَوْمٍ أَوْ نَصِيحَةٍ .  
وَكَانَ إِرَادَةُ قَاهِرَةً قَدْ هَيْمَنَتْ<sup>(٣)</sup> عَلَيَّ نَفْسِي ، وَغَلَبَتْ عَلَيَّ أَمْرِي ؛  
فَلَمْ أُصْنِعْ إِلَى نَصِيحَةٍ أَبِي ، وَرَجَاءِ أُمِّي ، وَالْحَاحِ أَقَارِبِي ؛ حَتَّى يَنْسُوا  
مِنْ هِدَايَتِي ، لِمَا رَأَوْهُ مِنْ عِنَادِي وَإِضْرَارِي .

### ٣ - نَصِيحَةُ وَالِدِي

وَكَانَ أَبِي شَيْخًا مُجَرَّبًا حَكِيمًا ، وَكُنْتُ أُحِبُّهُ وَأَجُلُّهُ .

(١) اتعلمه . (٢) تعلق قلبى . (٣) تطلعت .

وَذَا صَبَاحٍ ، دَعَانِي إِلَى غُرْفَتِهِ - وَكَانَ الشَّلَالُ قَدْ أَعْجَزَهُ عَنِ الْمَشْيِ -  
وَقَالَ لِي وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ  
أَمَارَاتُ الْغَيْظِ وَالْأَلَمِ :



« أَيُّ رَغْبَةٍ مَجْنُونَةٍ تَدْفَعُكَ  
إِلَى مُغَادَرَتِنَا ، وَتُبْغِضُ إِلَيْكَ  
الْبَقَاءَ مَعَنَا ؟ وَمَاذَا يُضْجِرُكَ<sup>(١)</sup>  
مِنْ حَيَاةٍ هَنِيئَةٍ وَعَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ،

فِي بَيْتٍ نَشَأْتَ فِيهِ ، وَوَطَنٍ أَلْفَتْهُ وَأَحْبَبْتَهُ ؟ وَمَا بِاللَّكِ تُوْمَرُ<sup>(٢)</sup>  
الشَّقَاءَ عَلَى الرَّاحَةِ ، وَتُعْرَضُ نَفْسَكَ لِأَخْطَارِ الْبَحْرِ وَمَتَاعِبِ السَّفَرِ ؟  
لَقَدْ يَسَّرَ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَ السَّعَادَةِ ، وَهَيَّا لَكَ عَيْشَةً رَاضِيَةً . فَمَا أَجْدَرُكَ<sup>(٣)</sup>  
أَنْ تَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ ، وَتَحْمَدَهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي اخْتَصَّكَ  
بِهَا ! وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنَادِكَ ، وَأَيَّدْتَ إِلَّا تَحْقِيقَ  
رَغْبَتِكَ الْمَجْنُونَةِ فِي السَّفَرِ ، أَغْضَبْتَنِي ، وَأَغْضَبْتَ أُمَّكَ ، وَأَغْضَبْتَ اللَّهَ  
- سُبْحَانَهُ - الَّذِي أَمَرَكَ بِطَاعَةِ أَبِيكَ . »

(١) يضايقك . (٢) تخنار . (٣) أحسنك .

## ٤ - دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

وَوَظَلَّ أَبِي يَمْنَفٌ<sup>(١)</sup> فِي كَلَامِهِ تَارَةً ، وَيَلِينُ تَارَةً أُخْرَى ،  
وَيَضْرِبُ لِي الْأَمْثَالَ . وَلَمْ يَدْعُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النُّصُوحِ إِلَّا سَلَكَهَا .  
ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ قَائِلًا :

« وَأَذْكُرُ - يَا وَلَدِي - أَنِّي فَقَدْتُ شَقِيْقَكَ الْأَكْبَرَ الَّذِي قُتِلَ  
فِي الْحَرْبِ ، وَقَدَدْتُ شَقِيْقَكَ الْأَوْسَطَ الَّذِي أَصْرَّ عَلَى السَّفَرِ ، كَمَا نُصِرْتُ  
عَلَيْهِ الْآنَ ؛ وَقَدْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنَّا إِلَى الْيَوْمِ ، فَمَا تَعْلَمُ : أَحَىُّ هُوَ  
أَمْ مَيِّتٌ ؟ وَأَصْبَحْتَ لَنَا - بَعْدَ أَخَوَيْكَ - كُلُّ رَجَائِنَا وَعَزَائِنَا .  
فَإِذَا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنَادِكَ ، وَأُيِّنْتَ إِلَّا السَّفَرَ ؛ فَلَنْ يُبَارِكَ اللَّهُ لَكَ ؛  
وَلَنْ تَلْقَى - فِي سَفَرِكَ - إِلَّا الْغَنَاءَ وَالشَّقَاءَ . »

• • •

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَكْهِنًا<sup>(٢)</sup> صَادِقًا ، وَدَعْوَةً مُسْتَجَابَةً ؛  
فَقَدْ شَقِيْتُ - بَعْنَادِي وَإِصْرَارِي<sup>(٣)</sup> - شَقَاءَ لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي .

(١) يشند . (٢) إخباراً بالغيب . (٣) غزوى الثابت .

## ٥ - عُدُولُهُ عَنِ السَّفَرِ

وكان صوتُ أبي مَهْدَجًا<sup>(١)</sup> ، ودُمُوعُهُ تَنحَدِرُ<sup>(٢)</sup> مِنْ عَيْنَيْهِ .  
 وَقَدْ اشْتَدَّ أَلَمُهُ حِينَ ذَكَرَ لِي مَوْتَ شَقِيقِي الْأَكْبَرِ ، وَاتَّقِطَاعَ أَخْبَارِ  
 شَقِيقِي الْأَوْسَطِ .

وكانَ يَتَمَثَّلُ لِي حَنَانُهُ وَعَظْفُهُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ  
 فِي وَسْعِي أَنْ أَخَالَفَ لَهُ نَصْحًا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَوَعَدْتُهُ بِالْمُدُولِ عَنِ السَّفَرِ .  
 وَعَقَدْتُ عَزْمِي<sup>(٣)</sup> عَلَى الْبَقَاءِ فِي وَطَنِي ، نَزُولًا عَلَى حُكْمِهِ ، وَطَاعَةً لِأَمْرِهِ .

## ٦ - تَقْضِيَةُ الْعَهْدِ

وَبَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ مَاوَدْتَنِي رَغْبَةٌ قَاهِرَةٌ فِي السَّفَرِ ، وَحِينَئِذٍ شَدِيدٌ  
 إِلَيَّ رُكُوبِ الْبَحْرِ فَتَسَيْتُ مَا عَاهَدْتُ أَبِي عَلَيْهِ ، وَتَحَوَّلْتُ<sup>(٤)</sup>  
 لِذَلِكَ حِيلَةً لَمْ أَوْفَّقْ فِيهَا . فَقَدْ رَأَيْتُ دَلَائِلَ الْإِبْتِهَاجِ بَادِيَةً عَلَى وَجْهِ  
 أُمِّي - ذَاتَ يَوْمٍ - فَوَجَدْتُ فِي ذَلِكَ فُرْصَةً سَانِحَةً لِلْإِفْضَاءِ إِلَيْهَا بِرَغْبَتِي  
 فِي السَّفَرِ ، وَاسْتِثْنَانِهَا فِيهِ . وَتَلَطَّفْتُ فِي شَرْحِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحْفَظُنِي<sup>(٥)</sup>

(٢) بنيت إرادتي .

(١) سقط .

(٣) مرتشأ .

(٥) تدفني .

(٤) اتخذت .

إِلَى السَّفَرِ لِرُؤْيَةِ الْبِلَادِ الَّتِي طَالَمَا سَمِعْتُ عَنْهَا . وَأُظْهِرْتُ لَهَا أَنَّ هَذِهِ  
الرَّغْبَةَ قَدْ مَلَأَتْ نَفْسِي ؛ فَلَمْ أَعُدْ أَصْلِحُ لِإِدَاءِ أَيِّ عَمَلٍ آخَرَ ، قَبْلَ  
أَنْ أَظْفَرَ بِتَحْقِيقِهَا . وَخَتَمْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا :

« وَأَعْلَمِي أَنِّي إِذَا عَجَزْتُ عَنْ الظَّفْرِ بِهَذَا الْإِذْنِ مِنْكَ وَمِنْ أَبِي ،  
فَإِنِّي مُعْتَزِمٌ السَّفَرِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ . وَلَا تَنْسَى أَنِّي قَدْ بَلَغْتُ الثَّامِنَةَ  
عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِي ، وَأَصْبَحْتُ عَاقِلًا رَشِيدًا ، أَمَلِكُ أَمْرِي .  
عَلَى أَنِّي أَرَى الْخَيْرَ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي السَّفَرِ ، »

#### ٧ - غَضَبُ أَبِيهِ

وَمَا سَمِعَتْ أُمِّي مِنْ هَذَا الْكَلَامِ حَتَّى اشْتَدَّ غَضَبُهَا عَلَيَّ ،  
وَقَالَتْ لِي :

« مِنْ الْعَبَثِ أَنْ تَتَمَادَى<sup>(١)</sup> فِي إِقْنَاعِنَا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ الطَّائِشَةِ  
الَّتِي لَا تَجْرُ عَلَيْكَ إِلَّا الْوَبَالَ<sup>(٢)</sup> . وَلَنْ يَسْمَعَ لَكَ أَبُوكَ بِأَنْ تُعْرَضَ  
نَفْسُكَ لِلْهَلَاكِ . »

• • •

(١) تستمر . (٢) سوء العاقبة .



وما أَخْبَرَتْ أَبِي بِمَا اعْتَزَمْتُهُ ، حَتَّى أَشْتَدَّ أَلْمُهُ وَغَيْظُهُ ، وَقَالَ لَهَا :  
 « يَبْدُو لِي أَنَّ الشَّقَاءَ مُقَدَّرٌ لِهَذَا الْوَلَدِ الْتَائِسِ . وَسَيَلْقَى فِي سَفَرِهِ  
 مِنْ الْمَصَائِبِ وَالْأَهْوَالِ ، مَا لَا يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالٍ . وَسَيَعْرِفُ أَنَّ  
 مَا يَحُلُّ بِهِ مِنَ النَّكَبَاتِ هُوَ عِقَابٌ عَادِلٌ عَلَى مُخَالَفَتِهِ نَصِيحَةَ أَبِيهِ .  
 وَلَنْ يَسْمَعَ لِي ضَمِيرِي أَنْ أَشْرَكَهُ فِي تَسْهِيلِ أَسْبَابِ شَقَائِهِ . »

• • •

وَمَا انْقَضَى عَلَى عَامٍ — بَعْدَ ذَلِكَ — حَتَّى فَرَرْتُ مِنَ الْبَيْتِ ، وَقَدْ  
 أُرْمِمْتُ<sup>(١)</sup> السَّفَرَ ، بَعْدَ أَنْ عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بِرِضَاءِ أَبِي .  
 وَكُنْتُ أَعْجَبُ لِتَشْبُهَيْهِمَا<sup>(٢)</sup> بِيَقَائِي مَعَهُمَا . وَلَمْ أَعْلَمْ — حِينَئِذٍ —  
 مَا كَانَ يَنْبُوهُ لِي الْقَدَرُ مِنْ مَصَائِبَ وَوَيْلَاتٍ .

---

(١) فررت . (٢) تملقهما .

## الفصل الأول

# أهوالُ البحْرِ

### ١ - أوَّلُ سَيْتَمِبَرِ

سَأَقْتِنِي الْمُصَادَفَاتُ الْمَجِيئَةُ - ذاتَ يَوْمٍ - إلى « هَلْ » ، وَلَمْ أَكُنْ  
أَفْكَرُ - حِينَئِذٍ - فِي السَّفَرِ إِلَيْهَا ، وَلَا خَطَرَ لِي ذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَلَى بَالٍ .  
وَلَقِيتُ - فِي طَرِيقِي - أَحَدَ أَصْدِقَائِي ، فَحَيَّانِي وَحَيَّيْتُهُ . ثُمَّ عَلِمْتُ  
مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ عَلَى أَهْبَةِ السَّفَرِ <sup>(١)</sup> إِلَى « لَنْدَن » . وَدَعَانِي إِلَى السَّفَرِ مَعَهُ  
فِي سَفِينَةٍ أَبِيهِ ؛ فَرَأَيْتُهَا فَرُصَةً نَادِرَةً لِتَحْقِيقِ أَمْنِيَّتِي ، دُونَ أَنْ يُسْكَفَنِي  
ذَلِكَ أَجْرًا . وَغَلَبَ عَلَيَّ حُبُّ الْبَحْرِ ، فَنَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ . وَلَمْ أَحْفَلْ <sup>(٢)</sup>  
بِإِذْنِ وَالِدِي لِي فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَلَمْ أَقْدِرْ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ .  
وَهَكَذَا رَكِبْتُ الْبَحْرَ ... وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ <sup>(٣)</sup> ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي

---

(١) سئمت للرحيل . (٢) لم أهتم . (٣) إن نسيت كل شيء فلن أنسى .

أَقْدَمْتُ فِيهِ عَلَى هَذِهِ الْمُجَازَفَةِ . فَقَدْ كَانَ أَشْأَمَ يَوْمٍ فِي تَارِيخِ حَيَاتِي ؛  
إِذْ كَانَ فَاتِحَةَ عَهْدِ الشَّقَاءِ .

ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ أَوَّلُ سِبْتَمْبَرِ عامِ ١٦٥١ م .

## ٢ - هُبُوبُ الْمَاصِفَةِ

وَمَا كَادَتْ السَّفِينَةُ تَنْحُرُ<sup>(١)</sup> فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الْأَمْوَاجَ  
تَصْطَلِبُ<sup>(٢)</sup> وَتَمُتِفُ<sup>(٣)</sup> . وَلَمْ أَكُنْ رَكِبْتُ الْبَحْرَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ ؛  
فَتَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ ، وَأَحْسَسْتُ أَنَّ آخِرَتِي قَدْ حَانَتْ .  
وَتَمَثَّلَتْ لِي نَصَائِحُ وَالِدِي وَأَهْلِي ، وَذَكَرْتُ كَلِمَاتِ أُمِّي الَّتِي  
كَانَتْ تَقُولُهَا لِي وَالِدُومُوحُ مُتَحَدِّرَةً مِنْ مَآفِيهَا<sup>(٤)</sup> . وَأَيَقَنْتُ أَنَّ هَذَا  
الْمَاصِفَةَ لَيْسَتْ إِلَّا عِقَابًا مَادِلًا وَجَزَاءً وَفَاقًا .

وَاشْتَدَّ هَيْجُ الْبَحْرِ وَاضْطِرَابُهُ . وَرَأَيْتُ الْمَاصِفَةَ الْهَوْبَاءَ ، وَهِيَ  
تُنذِرُنَا بِالْهَلَاكِ - بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى - وَقَدْ أَوْشَكَ الْمَوْجُ أَنْ  
يَنْتَلِينَا جَمِيمًا . وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفِينَةَ تَهْبِطُ حَتَّى تَلْمِسَ قَاعَ الْبَحْرِ ،  
فَلَمْ أَرَ مَنَاصًا<sup>(٥)</sup> مِنَ الْمَوْتِ . وَنَذَرْتُ لِلَّهِ نَذْرًا إِلَّا أَرْكَبَ الْبَحْرَ

(١) تشق الماء . (٢) تنقلب . (٣) تشتد . (٤) جواب مينيها . (٥) مخرجا

مَا حَيْثُ بَمَدِّ هَذِهِ الْمَرَّةِ ، إِذَا نَجَّوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ ! وَدَعَوْتُ اللَّهَ  
أَنْ يُنْقِذَنِي ، لِأَعُودَ إِلَى أَبِي تَائِبًا نَادِمًا عَلَى عِصْيَانِي وَخَالَفَتِي ،  
وَأَعَاهِدُهُمَا<sup>(١)</sup> عَلَى أَنْ أُطِيعَهُمَا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرَانِ بِهِ .

• • •

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ سَكَنَ الْهَوَاءُ ، وَهَدَأَ الْبَحْرُ . وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنِّي  
قَدْ تَمَوَّذْتُهُ وَأَلْفَتُهُ بَعْضَ الْأَلْفَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ - حِينَئِذٍ - قَدْ تَمَّ  
شِفَاؤِي مِنَ الدُّوَارِ<sup>(٢)</sup> .

وَلَمَّا اقْتَرَبَ اللَّيْلُ وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ وَانْقَشَمَتِ السُّحُبُ<sup>(٣)</sup> ، ظَهَرَتْ  
رَوْعَةُ الْبَحْرِ<sup>(٤)</sup> ، وَجَمَالُ الطَّبِيعَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَهَبَّ عَلَيْنَا فِي الْيَوْمِ  
التَّالِيِ نَسِيمٌ خَفِيفٌ . وَأَصْبَحَ الْبَحْرُ كَالْمِرَاةِ الصَّافِيَةِ ، وَتَجَلَّتِ الطَّبِيعَةُ  
فِي أَبْعَى حُلَاهَا<sup>(٥)</sup> . وَرَأَيْتُ مِنْ جَمَالِ الْبَحْرِ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ -  
مَا أَنْسَانِي هِيَاجُهُ وَاضْطِرَابُهُ بِالْأَمْسِ . فَتَسَيْتُ ذَلِكَ النَّذْرَ الَّذِي نَذَرْتُهُ  
لَهُ ، وَالْمَعْدَ الَّذِي قَطَعْتُهُ عَلَى نَفْسِي !

• • •

(١) أحلف لهما . (٢) وجع يمسب الرأس من ركوب البحر . (٣) زالت .  
(٤) حسن منظره . (٥) أجل أنوارها .

وَجَاءَ إِلَى صَدِيقِي يُرَبِّتُ كِتَبِي وَيَقُولُ :

« كَيْفَ تَجِدُكَ الْآنَ ؟ شَدَّ مَا رَوَّعَكَ <sup>(١)</sup> الْبَحْرُ ، يَا صَدِيقِي .  
وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ <sup>(٢)</sup> بِالشَّجَاعَةِ ، فَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُكَ خَوْفًا وَرُعبًا حِينَ  
هَبَّتْ عَلَيْنَا نَسْمَةٌ لَطِيفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ . »

\*\*\*

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبًا : « كَيْفَ تُسَمِّيهَا نَسْمَةً ، وَهِيَ عَاصِفَةٌ هَوَّاجَةٌ  
مُرْوَعَةٌ ؟ »

فَقَالَ لِي : « وَكَيْفَ تُسَمِّيهَا عَاصِفَةً ؟ يَا لَكَ مِنْ سَادِجٍ !  
إِنَّهَا نَسْمَةٌ خَفِيفَةٌ ، طَالَمَا أَلْفَنَاهَا وَهَزَيْنَاهَا بِهَا . فَلَا تَجْزَعُ مِنْ  
أَمْثَالِهَا ؛ فَإِنَّتَ رَجُلٌ ، وَمَا أَجْدَرَ الرَّجُلَ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا ! »

### ٣ - فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ

وَقَدْ أَنَسَانِي هُدُوءُ الْبَحْرِ وَصَفَاؤُهُ كُلُّ آلَامِي وَأُحْزَانِي . وَشَغَلَنِي  
التَّأَمُّلُ فِي جَمَالِ الطَّيِّبَةِ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ . وَلَمْ يَنْقُصْ عَلَيَّ سَبْعَةُ أَيَّامٍ

(١) أزعجك . (٢) ما أحتك .

حَتَّى اطْمَأْنَنْتَ نَفْسِي إِلَى حَيَاةِ الْبَحْرِ ؛ وَلَمْ أَعُدْ أَذْكَرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِي ،  
 وَنَسِيتُ كُلَّ مَا زَوَّدُونِي بِهِ مِنْ نَصَائِحَ . وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ  
 عَنُقَتِ الرِّيحُ ، وَاشْتَدَّتْ اشْتِدَادًا لَا مِثِيلَ لَهُ : وَبَدَأَ الْقَلْقُ وَالْإِضْطِرَابُ  
 عَلَى أَسَارِيرِ الْمَلَّاحِينَ<sup>(١)</sup> ؛ فَأَنْزَلُوا أَسْرِعَةَ السَّفِينَةِ ، وَتَأَهَّبُوا<sup>(٢)</sup> لِمَلَاةِ  
 الْخَطَرِ وَجْهًا لَوَجْهِهِ . وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ اشْتَدَّ هَيْجُ الْبَحْرِ ، وَدَبَّ  
 الْيَأْسُ فِي نُفُوسِنَا جَبِيمًا . وَسَمِعْتُ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وَقَدْ كَانَ مِثَالِ  
 الشُّجَاعَةِ وَالْحَزْمِ — وَهُوَ يُنَاجِي نَفْسَهُ بِصَوْتِ خَافِتٍ : « رَحْمَةً بِنَا  
 يَا إِلَهِي ! فَقَدْ هَلَكْنَا جَبِيمًا ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا مَلْجَأٌ سِوَاكَ . »

وَأَمْتَلَأَتْ نَفْسِي رُغْبًا ؛ إِذْ رَأَيْتُ الْأَمْوَاجَ تَرْتَفِعُ كَالْجِبَالِ ، وَتَنْقَضُ<sup>(٣)</sup>  
 عَلَيْنَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، فَيُخَيِّلُ إِلَيْنَا أَنَّهَا قَدْ ابْتَلَمَتْنَا . وَرَأَيْنَا السَّفِينَ  
 الْقَرِيبَةَ تُمَانِي مِثْلَ مَا نُمَانِيهِ ، وَقَدْ غَرِقَتْ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ بِالْقُرْبِ مِنَّا .  
 وَمَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ حَتَّى صَاحَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ يَطْلُبُ مِنْ رِفَاقِهِ النَّجْدَةَ  
 وَالْعَوْتَ ؛ فَقَدْ مُقِبَتِ السَّفِينَةُ ! وَأَسْرَعْنَا إِلَيْهِ ، فَرَأَيْنَا نُفْرَةً<sup>(٤)</sup> يَتَدَفَّقُ

(١) خلوط جبينهم (٢) استندوا (٣) تسقط (٤) خرقاً .

مِنْهَا الْمَاءُ . وَتَمَاوَنَّا جَمِيعًا عَلَى إِخْرَاجِ الْمَاءِ مِنَ السَّفِينَةِ . وَأَطْلَقَتْ  
 إِخْدَى السُّفُنِ الْقَرِيبَةَ مِنَّا مِدْفَعًا ، إِنْذَارًا بِالْخَطَرِ ، وَطَلَبًا لِلنَّجْدَةِ .  
 وَقَدْ أُغْيِيَ عَلَى مِن شِدَّةِ الْخَوْفِ .

وَلَمْ أَفِقْ مِنْ غَشْيَتِي إِلَّا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ . وَأَطْلَقَ رُبَانُنَا مِدْفَعًا ،  
 التَّمَّاسًا لِلنَّجْدَةِ . فَدَنَّتْ مِنَّا سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لِإِتْقَانِنَا ، وَحَمَلَتْنَا إِلَى بَاخِرَةِ  
 قَرِيبَةٍ . وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ<sup>(١)</sup> شَدِيدٍ .

• • •

وَبَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ رَأَيْنَا سَفِينَتَنَا وَهِيَ تَفَرَّقُ . وَمَضَى عَلَيْنَا زَمَنٌ  
 طَوِيلٌ وَنَحْنُ مُسْتَهْدِفُونَ<sup>(٢)</sup> لِلْخَطَرِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى . وَلَمْ نَبْلُغِ  
 الشَّاطِئَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ خَارَتْ<sup>(٣)</sup> قُوَانَا وَيَسُنَّا مِنَ النَّجَاةِ .

#### ٤ - بَعْدَ النَّجَاةِ مِنَ الْفَرَقِ

وَلَقَدْ كَانَ جَدِيرًا بِي - بَعْدَ أَنْ بَمَنَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالسَّلَامَةِ مِنْ  
 الْفَرَقِ - أَنْ أَقْبَلَ بِنْدَرِي ، وَأَعُوذَ إِلَيَّ أَهْلِي تَائِبًا نَادِمًا عَلَى مَا قَرَّطَ<sup>(٤)</sup>

(١) تعب . (٢) متعرضون . (٣) ضعفت . (٤) ما سبق وقوعه .

مِنِّي . وَلَكِنْ غُرُورَ الشَّبَابِ (١) حَالِ يَنِينِي وَبَيْنَ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ  
 النَّبِيلَةِ . فَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي شِمَاتُهُ النَّاسِ بِي ، وَسُخْرِيَتُهُمْ مِنِّي ؛ لِمَا لَحِقَنِي  
 مِنَ التَّكْبَاتِ فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ الْمَشْهُومَةِ . وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي إِذَا عُدْتُ  
 إِلَى أَهْلِي ، أَصْبَحْتُ سُخْرِيَةَ النَّاسِ . وَعَزَّ عَلَيَّ نَفْسِي أَنْ أُعْتَرِفَ بِخَطِيئِي .  
 وَقَدْ كَلَّفَنِي هَذَا الْغُرُورُ ثَمَنًا غَالِيًا جِدًّا ؛ فَقَدْ دَفَعَنِي الْعِنَادُ إِلَى اقْتِحَامِ  
 الْأَخْطَارِ وَرُكُوبِ الْبِحَارِ ، وَلَقِيتُ مِنَ الْمَصَائِبِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لِي  
 عَلَى بَالٍ .

فَرَزَمْتُ - بَمَدٍ أَنْ سَافَرْتُ إِلَى « لَنْدَن » - عَلَى مُرَافَقَةِ جَمَاعَةٍ  
 مِنَ التَّمْلَاحِينَ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَى شَوَاطِئِ إِفْرِيقِيَّةٍ . وَلَمْ أَعْلَمْ مَا يَنْبُوهُ  
 لِي الْقَدَرُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْآلَامِ .

---

(١) خُصَامُهُ وَبِاطَلُهُ .



الفصل الثاني

بَيْنَ الْأَسْرِ وَالْحُرِّيَّةِ

١ - رِحْلَةُ مُوقَّةً

كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي آتِقَابَةً سِلْسِلَةً مِنَ الْكُورِثِ<sup>(١)</sup>  
رَأْتِكِبَاتٍ ، فَلَا أَجُلَّصَ مِنْ مُصِيبَةٍ حَتَّى تُسَلِّمَنِي إِلَى أُخْرَى ، وَلَا  
أَنْجُورَ مِنْ مَازِقٍ<sup>(٢)</sup> حَتَّى أَفْعَ فِي مَازِقٍ شَرِّ مِنْهُ . قَدَّ أَغْضَبْتُ وَاللَّيَّ  
وَأَهْلِي ، وَأَهْمَلْتُ نَصَائِحَهُمْ ، وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي بِلا إِذْنٍ مِنْهُمْ .  
وَتَمَّةً أَيَقْنْتُ أَنَّ مَا حَلَّ بِي مِنَ الْكُورِثِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِقَابًا مَدْلًا  
عَلَى تَمَرْدِي وَعِصْيَانِي .

لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّفَرِ ، بَعْدَ أَنْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ إِلَى  
بَيْتِي مُخْفِقًا<sup>(٣)</sup> . وَأَرَدْتُ أَنْ أَضْلِحَ النِّخْلَ الْأَوَّلَ بِخَطِيبَةٍ أُخْرَى ،  
أَكْثَرَ شِنَاعَةً مِنْهُ . فَمَا صَاحَبْتُ رُبَّانَ إِحْدَى السُّفُنِ - وَكَانَ أَوَّلَ  
شَخْصٍ لَقِيْتُهُ مِنَ الْمَلَّاحِينَ - حَتَّى أَعَزَمْتُ مُرَاقَبَتَهُ فِي رِحْلَتِهِ .

(١) المصائب . (٢) ضيق وشدة . (٣) غالباً .

وكانت سفينته ذاهبة إلى شواطئ « غانة » وقد أخبرني بما لقي  
 من نجاح ، وما أفاد من غنى وثروة ، في رحلته الأولى إلى تلك  
 البلاد . وما تعرف قصتي حتى شجعتني على مصاحبته ، وأعفاني من  
 نقمات الرحلة . واقترح علي أن أشتري — بما معي من النقود —  
 بضائع لاتجر بها في تلك البلاد ؛ ففعلتُ كل ما أشار به علي .  
 ونجعت هذه الرحلة . وقد بذل جهده في تدريبي على الملاحة  
 والتجارة . وعدت إلى « لندن » مُتعبًا راضيًا بما أصبته من  
 ربح وتوفيق .

## ٢ - لُصُوصُ الْبَحْرِ

وبعد أيام قليلة توفي ذلك الربان . فحزنت لموته حزناً شديداً ؛  
 ومنحت أرملته مائتي جنيه . وشررت بضائع بمائة الجنيه الباقية  
 معي ، وأبحرت إلى « غانة » . ولكن رحلتنا — في هذه المرة —  
 لم تكن موفقة ؛ فقد أعترضنا لُصُوصُ الْبَحْرِ في الطريق ، فأطلقنا  
 لسفینتنا الصان ، وحاولنا النجاة منهم . وكان في سفینتنا اثنا عشر مدفعا ،

وَعِنْدَ أَعْدَائِنَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِذْمًا . وَكُنَّا أَقَلَّ مِنْهُمْ عَدَدًا ، وَلَكِنَّا  
 اسْتَبَسَلْنَا فِي دِفَاعِنَا وَقَهَرْنَاهُمْ مَرَّتَيْنِ . ثُمَّ كَرُّوا عَلَيْنَا - فِي الْمَرَّةِ  
 الثَّلَاثَةِ - فَقَهَرُونَا ، وَحَطَّمُوا قِلَاعَنَا ، وَقَتَلُوا ثَلَاثَةً مِنْ رِجَالِنَا ،  
 وَجَرَّحُوا ثَمَانِيَةَ ؛ فَاضْطَرَرْنَا إِلَى الْإِذْعَانِ لَهُمْ ، وَوَقَعْنَا فِي أَسْرِهِمْ .

### ٣ - الْعُبُودِيَّةُ

وَقَدْ أَعْجَبَ الرَّبَّانُ بِنَشَاطِي ؛ فَاتَّخَذَنِي عَبْدًا لَهُ . وَبَنَيْتُ فِي  
 خِدْمَتِهِ عَامَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ ، وَأَنَا أَفْكَرُ فِي وَسِيلَةِ الْهَرَبِ فَلَا أَوْفُقُ .  
 وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَصْحَبُنِي لِأَصْطَادَ مَعَهُ ، وَقَدْ وَثِقَ بِي فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ .



وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ ، طَلَبَ  
 مِنِّي الرَّبَّانُ أَنْ أَصْطَادَ سَمَكًا  
 لِيَتَمَشَّى بِهِ مَعَ صُيُوفِهِ ؛ فَرَأَيْتُ  
 الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِلْهَرَبِ ؛ فَقَدْ  
 تَرَكَ لِي الرَّبَّانُ سَفِينَةَ الصَّيْدِ ،  
 وَلَمْ يَكُنْ يَصْحَبُنِي إِلَّا فَتًى

رَقِيقٌ ، وَرَجُلٌ مِنْ أَقْرَبِ الرُّبَانِ . فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ :  
 « يَجِبُ أَنْ تُعِدَّ لَنَا زَادًا<sup>(١)</sup> نَأْكُلُهُ حَتَّى لَا نَشْرِكَ سَيِّدَنَا فِي أَكْلِهِ . »  
 فَأَقْرَنِي عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ، وَأَحْضَرَ لَنَا سَلَةً مِنَ الْفَطَائِرِ الْيَابِسَةِ  
 وَالْحُشْكَنَانِ<sup>(٢)</sup> ، وَثَلَاثَ جَرَاتٍ مَمْلُوءَةٍ مَاءً . وَذَهَبْتُ إِلَى مَخْزَنِ  
 الرُّبَانِ ؛ فَأَحْضَرْتُ مَعِيَ قَاسًا وَقَدُومًا وَحِيَالًا ، وَطَلَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ  
 أَنْ يُحْضِرَ لَنَا بُنْدُقيَاتٍ وَرِصَاصًا لِنَصْطَادَ بِهَا ، فَأَحْضَرَ لِي مَا طَلَبْتُ .  
 وَهَكَذَا أَعَدَدْتُ كُلَّ مُعَدَّاتِ الْحَرْبِ .

#### ٤ - الْفِرَارُ

لَقَدْ أَرْمَعْتُ الْفِرَارَ<sup>(٣)</sup> ، وَلَمْ أَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنَ النَّجَاحِ ؛ وَلَكِنِّي  
 أَيَقَنْتُ أَنَّ الْعَزِيمَةَ الصَّادِقَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ تَعْتَرِضُهَا ، مَا دَامَ  
 الْيَأْسُ لَا يَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَيْهَا .  
 وَسِرْنَا مَسَافَةً طَوِيلَةً وَأَنَا أُوهِمُ الرَّجُلَ أَنَّنِي جَادٌّ فِي تَحْقِيقِ فِكْرَةِ  
 الرُّبَانِ . ثُمَّ غَافَلْتُهُ وَقَذَفْتُ بِهِ إِلَى الْبَحْرِ - وَكَانَ مَاهِرًا فِي السَّبَاحَةِ -

(١) طَلًا . (٢) الْبُكْرِيَّةُ . (٣) اعْتَزَمْتُ الْحَرْبَ .

وَرَأَيْتُهُ يُوشِكُ أَنْ يَلْحَقَ بِي ، فَصَوَّبْتُ بِنَدُقِيَّ إِلَى رَأْسِهِ ، وَهَدَدْتُهُ  
بِالْقَتْلِ إِذَا تَتَّبَعَنِي ؛ فَاضْطُرُّ  
لِلرُّجُوعِ إِلَى الشَّاطِئِ ، بَعْدَ أَنْ  
يَيْسَ مِنَ الظَّفَرِ بِي .



وَسَأَلْتُ الْفَتَى : « أَتَمَاهِدُنِي  
عَلَى الْوَفَاءِ ، أَمْ تَعُوذُ أَذْرَاجَكَ  
كَمَا عَادَ هَذَا الرَّجُلُ ؟ فَإِنِّي  
عَامِلٌ عَلَى قَتْلِكَ إِذَا لَاحَ (١)  
بِي مِنْكَ الْغَدْرُ . »

فَابْتَسَمَ لِي الْفَتَى ، وَأَقْسَمَ : إِنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدَ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِي  
وَالنَّهَابِ مَعِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ . وَظَلَلْنَا فِي سَيْرِنَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ ، وَالرِّيحُ  
مُتَدَلِّةٌ وَالبَحْرُ هَادِيٌّ وَقَدْ أَيَقَنْتُ أَنَّ الرُّبَانَ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْهَاقَ  
بِنَا بَعْدَ ذَلِكَ . فَلَمَّا حَانَ الْمَسَاءُ ، دَنَوْتُ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَاعْتَزَمْتُ  
قَضَاءَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِالقُرْبِ مِنْهُ .

## ٥ - الوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ

ثُمَّ خَطَرَ لِي أَنْ أَخْرُجَ كَيْلًا إِلَى الشَّاطِئِ لِأَتَعَرَّفَ : أَيْنَ نَحْنُ ؟  
 وَلَكِنَّا سَمِعْنَا أَصْوَاتًا مُرَوِّعَةً ، وَأَحْسَسْنَا أَنَّ وُحُوشًا تَزَارُ بِالقُرْبِ  
 مِنَّا ؛ فَالَحَّ عَلَيَّ الْفَتَى أَلَّا أَغَادِرَ المَرْكَبَ حَتَّى لَا تَتَعَرَّضَ لِلْمَلَاحِ .  
 وَقَضَيْنَا لَيْلَتَنَا سَاهِرَيْنِ بِالقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَنَحْنُ مُتَحَفِّزَانِ <sup>(١)</sup>  
 لِنَفِجَ غَارَةً هَذِهِ الوُحُوشِ <sup>(٢)</sup> ، إِذَا أَقْبَلَتْ نَحُونَا .  
 وَرَأَيْتُ سِرْبًا مِنْهَا يَتَقَدَّمُ إِلَى مَرْكَبِنَا ؛ فَأَطْلَقْتُ رِصَاصَةً عَلَى أَحَدِهَا ،



فَادَتِ الوُحُوشُ أَذْرَاجَهَا ، وَهِيَ  
 تَزْمَجِرُ <sup>(٣)</sup> ، وَقَدْ تَمَلَّكَهَا الذُّعْرُ  
 حِينَ سَمِعَتْ دَوَى الرِّصَاصِ ،  
 وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بِسَمَاعِهِ عَهْدٌ .  
 وَاشْتَدَّتْ حَاجَتُنَا إِلَى المَاءِ ؛  
 فَأَرَادَنِي الْفَتَى عَلَى أَنْ أَبْقَى  
 فِي السَّفِينَةِ ، وَأُعْهَدَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْلَأَ

(٢) تصيح .

(١) نهبثان . (٢) هجوها .

الجرّة ، فسألته : لِمَاذَا يَنْشَبْتُ<sup>(١)</sup> بِالذَّهَابِ ؟  
 فقال لي : « أريدُ أنْ أَمْرَضَ لِلْخَطَرِ وَخَدِي . فَإِذَا قُتِلْتُ فِي الطَّرِيقِ  
 سَهَّلَ عَلَيْكَ أَنْ تَنْجُوَ بِنَفْسِكَ . »  
 فَأَكْبَرْتُ<sup>(٢)</sup> إِخْلَاصَهُ ، وَأَيَّدْتُ إِلَّا الذَّهَابَ مَعَهُ . وَرَسَوْنَا بِالْقُرْبِ  
 مِنَ الشَّاطِئِ ؛ وَابْتَعَدَ الْفَتَى عَنِّي قَلِيلًا ، ثُمَّ مَادَ مُسْرِعًا وَقَدِ امْتِطَادَ  
 أَرْبَابًا ، وَاهْتَدَى إِلَى مَكَانِ الْمَاءِ . وَثُمَّ<sup>(٣)</sup> أَكَلْنَا الْأَرْزَبَ مَسْرُورِينَ ،  
 وَاسْتَأْتَفْنَا السَّيْرَ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ .

#### ٦ - صَيْدُ الْأَسَدِ

والتفتَ إِلَى الْفَتَى فَجَاءَ يَحْتَثِي<sup>(٤)</sup> عَلَيَّ أَنْ أَبْعُدَ عَنِ الشَّاطِئِ ،  
 وَكَانَ بَصْرُهُ حَدِيدًا<sup>(٥)</sup> ؛ فَلَمَحْتُ أَسَدًا جَائِعًا مِنْ بَعِيدٍ ، وَكَانَ  
 ضَخْمَ الْجِسْمِ .

وَقَدِ اشْتَدَّ ذُعْرُ الْفَتَى مِنْهُ ؛ فَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْكُنَ حَتَّى لَا يُنْبَهَ  
 الْأَسَدَ . ثُمَّ حَشَوْتُ بُنْدُقِيَّاتِي الثَّلَاثَ رَصَامًا ، وَصَوَّبْتُ الْأُولَى إِلَى  
 رَأْسِهِ ، وَهُوَ نَائِمٌ . وَكَانَ الْأَسَدُ وَاضِعًا إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى فِيهِ<sup>(٦)</sup> ؛

(١) يصر . (٢) عظمت . (٣) هناك . (٤) يستعجلني . (٥) قويا . (٦) فـ .



فَأَصَابَتِ الرَّصَابَةَ سَاقَهُ ، فَحَطَمَتِ عَظْمَهَا . فَوَقَفَ مَذْمُورًا عَلَى سُوْقِهِ  
 الثَّلَاثِ . وَاشْتَدَّ زَيْبُهُ ؛ فَأَطْلَقَتْ عَلَيْهِ رَصَابَةً ثَابِتَةً ، فَخَرَّ (١)  
 صَرِيحًا مُجَدِّلاً (٢) يَنْشَحَطُ (٣) فِي دَمِهِ . وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ ،  
 فَأَفْرَغَ رَصَابَةً فِي أُذُنِهِ ؛ فَهَمَدَ الْأَسَدُ مِنْ سَاعَتِهِ .  
 وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا فَعَلْتُ ؛ فَقَدْ أَضْمَتُ ثَلَاثَ رَصَابَاتٍ فِي قَتْلِهِ  
 الْأَسَدِ ، وَلَيْسَ لَنَا فِي لَحْمِهِ غَدَاءٌ .

(١) سقط . (٢) مرتباً . (٣) يضطرب .



وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَقَطَعَ رَأْسَهُ بِفَأْسِهِ ، فَلَمْ  
يَسْتَطِعْ ، فَاصْتَفَى بِقَطْعِ إِحْدَى يَدَيْهِ ، وَحَمَلَهَا إِلَى . ثُمَّ تَعَاوَنَّا عَلَى  
سَلْخِهِ فِي مَدَى يَوْمٍ كَامِلٍ ، وَجَفَّفْتُهُ الشَّمْسُ فِي مَدَى يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ  
أَبْحَرْنَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ - صَوْبَ الْجَنُوبِ - وَقَدْ أَوْشَكَ زَادُنَا أَنْ  
يَنْتَهِيَ . ثُمَّ سِرْنَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ أُخْرَى ، وَنَحْنُ نَدْعُو اللَّهَ أَنْ نَلْتَقِيَ بِإِحْدَى  
السُّفُنِ الذَّاهِبَةِ مِنْ « أَوْزُبَةَ » إِلَى « غَانَةَ » أَوْ الْآيَةِ مِنْ « غَانَةَ »  
إِلَى « أَوْزُبَةَ » . وَلَمْ يَكُنْ يُعْزِينَا<sup>(١)</sup> فِي رِحْلَتِنَا شَيْءٌ سِوَى هَذَا  
الْأَمَلِ ، فَإِذَا أَخْفَقَ فَلَيْسَ أَمَانًا إِلَّا الْهَلَاكُ .

### ٧ - عَلَى الشَّاطِئِ

وَرَأَيْنَا جَمَاعَةً مِنَ الرِّجَالِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ وَهُمْ عُرَاةٌ . وَقَدْ  
أَرَدْتُ الدَّهَابَ إِلَيْهِمْ ، فَحَوَّلَنِي الْفَتَى عَنْ هَذَا الْعَزْمِ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ  
أَسْلِحَةٌ ، مَا عَدَا رَجُلًا مِنْهُمْ كَانَ يَحْمِلُ عَصًا صَغِيرَةً . فَأَشْرَفْتُ إِلَيْهِمْ  
أَنْبِي جَائِعٌ ، فَطَلَبُوا مِنِّي أَنْ أَرْسُوَ قَرِيْبًا . وَأَسْرَعَ اثْنَانِ مِنْهُمْ فَأَخْضَرَا  
إِلَى خُبْزًا وَقِطْعَتَيْنِ مِنَ اللَّحْمِ بَعْدَ نَيْفِ سَاعَةٍ .

(١) يصبرنا .

وَكُنَّا خَائِفِينَ مِنْهُمْ ، كَمَا كَانُوا خَائِفِينَ مِنَّا ؛ فَمَا وَضَعَ الرَّجُلَانِ  
مَا أَحْضَرَاهُ لَنَا عَلَى الشَّاطِئِ حَتَّى تَهْتَقِرَا رِجَاءً أَنْ يَأْمَنَّا شَرَّنَا . فَلَمَّا أَخَذْنَا  
الزَّادَ وَرَجَعْنَا إِلَى السَّفِينَةِ ، حَادَا إِلَى الشَّاطِئِ عِنْدَ إِخْوَانِهِمَا . وَلَمْ يَكُنْ  
مَعَنَا مَا تُطَيِّبُهُمْ لِإِيَّاهُ ؛ فَكَتَفَيْنَا بِشُكْرِهِمْ .

وَإِنَّا لَكَذَلِكَ ، إِذْ أَقْبَلَ وَحْشَانِ هَائِلَانِ ، أَحَدُهُمَا يَجْرِي خَلْفَ  
الْآخَرَ مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الْبَحْرِ . فَفَرَّ الرَّجُلَانِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمَا إِلَّا حَامِلُ  
الْمَعَا . ثُمَّ هَوَسَى الْوَحْشَانِ إِلَى الْبَحْرِ يَسْبَحَانِ وَيَلْهُوَانِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَحَدُهُمَا  
إِلَى مَرَكِبِنَا حَتَّى كَادَ يُدَانِنَا . فَأَطْلَقْتُ رِصَاصَةً عَلَى رَأْسِهِ ؛ فَصَرَخَتْهُ مِنْ  
فَوْرِهِ (١) . وَظَلَّ يَهْوِي إِلَى الْقَاعِ مَرَّةً ، وَيَطْفُو (٢) عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مَرَّةً  
أُخْرَى ، وَهُوَ يَعْدُو (٣) نَحْوَ الشَّاطِئِ . وَلَكِنَّهُ مَاتَ فِي مُتْتَصِفِ الطَّرِيقِ ،  
وَهَرَبَ الْحَيَوَانُ الْآخَرُ إِلَى الْجَبَلِ . وَضَجَّ الرَّجُلَانِ إِعْجَابًا بِنَا ، وَدَهْشَةً  
مِنَّا . عَلَى أَنَّهُمْ قَدِ اشْتَدَّ رُغْبُهُمْ ، وَسَقَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ  
الذُّعْرِ . فَأَشْرَتْ لَهُمْ لِأَطْمَئِنُّهُمْ حَتَّى زَالَ خَوْفُهُمْ ، وَسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ .

• • •

(١) قتله لجمال . (٢) يعلو . (٣) يجرى .

ثُمَّ تَمَاوَنُوا عَلَى سَلْجِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ ، وَقَدَّمُوا إِلَى جُزْءٍ مِنْ لَحْمِهِ  
لَا كُلَّهُ ؛ فَلَمْ أَقْبَلْهُ ، وَشَكَرْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَأَكْتَفَيْتُ بِجِلْدِ الْحَيَوَانِ ،  
فَأَعْطَوْنِيهِ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ زَادِهِمْ .

فَقَبِلْتُ هَدِيَّتَهُمْ شَاكِرًا مَسْرُورًا ، ثُمَّ أَشْرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي فِي حَاجَةٍ  
إِلَى الْمَاءِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْجِرَّةَ فَارِغَةً .  
فَفَهِمُوا مَا طَلَبْتُ ، وَمَلَأُوهُاءِ مِنْ  
قَوْرِهِمْ . ثُمَّ حَيَّتَهُمْ وَأَنْصَرَفْتُ  
مُسْتَأْنَفًا<sup>(١)</sup> سِيرِي نَحْوَ الْجَنُوبِ .  
وَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا .



## ٨ - الْأَمَلُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَكَانَ مَرْكَبِي يَسِيرُ فِي الْبَحْرِ مُعْتَسِفًا<sup>(٢)</sup> ، وَقَدْ كِدْتُ أَفْقِدُ الْأَمَلَ  
فِي النَّجَاةِ . وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي إِلَى أَيِّ مَسْكَانٍ أَذْهَبُ ؟ وَأَيَّ غَايَةِ  
أَيْمٍ<sup>(٣)</sup> ؟ وَأَشْتَدُّ أَرْتِبَاكِي ، وَزَادَ نَدْيِي عَلَى مَا سَلَفْتُ مِنْ عِصْيَانِ

(١) عائداً إلى . (٢) ضالاً على غير هدى . (٣) أقصد .

وَالِدِيَّ . وَذَكَرْتُ مَا جَرَّ نِي إِلَيْهِ الْغُرُورُ وَالْحَمَاقَةُ ؛ فَاسْتَعْفَرْتُ اللَّهَ  
 نَادِمًا عَلَى مَا فَرَطَ مِنِّي ، وَدَعَوْتُهُ أَنْ يُيسِّرَ لِي طَرِيقَ الْخَلَاصِ .  
 وَإِنِّي لَمَّارِقٌ فِي هَذِهِ التَّأَمُّلَاتِ إِذْ أَقْبَلَ الْفَتَى عَلَى وَهُوَ يَصْبِيحُ ،  
 وَقَدْ كَادَ الْخَوْفُ يَمْقِدُ لِسَانَهُ : « انْظُرْ هَذِهِ السَّفِينَةَ الْكَبِيرَةَ  
 يَا سَيِّدِي ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ سَفِينَةَ الرَّبَّانِ . »  
 أَمَا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ الرَّبَّانَ لَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْنَا .  
 وَمَا رَأَيْتُ السَّفِينَةَ حَتَّى عَرَفْتُ ، عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَةِ ، أَنَّهَا بَرُّنْغَالِيَّةٌ .

• • •

وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي الدُّنُو<sup>(١)</sup> مِنْ السَّفِينَةِ لِأَتَعَرَّفَ رَاكِبِيهَا فَلَمْ  
 أَفْلِحْ ؛ فَيَتَسْتُ مِنْ اللَّحَاقِ بِهِمْ . وَلَكِنْ أَحَدَهُمْ رَأَى بِمِجْهَرِهِ<sup>(٢)</sup>  
 وَقَدْ أَطْلَقْتُ بُنْدُقِيَّتِي ، لِأَشْعِرَهُمْ أَنِّي فِي خَطَرٍ .  
 وَقَدِ اسْتَطَعْتُ بَعْدَ جُهْدٍ كَبِيرٍ أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ .  
 وَمَا عَرَفُوا قِصَّتِي ، حَتَّى أَكْرَمُوا وَفَادَتِي<sup>(٣)</sup> ؛ فَأَهْدَيْتُ إِلَى رَبَّانٍ  
 السَّفِينَةَ كُلَّ مَا مَعِيَ ، فَلَمْ يَقْبَلْ شَيْئًا جَزَاءً لَهُ عَلَى صُنْعِهِ .  
 وَقَدْ فَاضَ قَلْبِي سُرُورًا بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ أَمَلِي فِي النِّجَاحِ .

( ١ ) القرب . ( ٢ ) بمنظاره المكبر . ( ٣ ) قدوى .

## ٩ - فِي الطَّرِيقِ إِلَى « الْبِرَازِيلِ »

وَكَانَتِ السَّفِينَةُ ذَاهِبَةً إِلَى « الْبِرَازِيلِ ». وَقَدْ حَظَرَ الرَّبَّانُ عَلَى الْمَلَّاحِينَ أَنْ يَمَسُّوا شَيْئًا مِنْ مَتَاعِي. وَقَدْ اشْتَرَى مَرْكَبِي بِشَمَانِينَ جُنَيْهَا، وَاشْتَرَى الْفَتَى مِنِّْي بِسِتِّينَ جُنَيْهَا. وَلَمْ يَكُنْ يَبِيعُ الْفَتَى الْمَسْكِينَ بِمَحْضِ رَغْبَتِي<sup>(١)</sup>، وَمَا كَانَ لِيُرْضِيَنِي أَنْ أَتْرُكَهُ رَقِيقًا<sup>(٢)</sup>؛ وَلَكِنَّ الرَّبَّانَ وَعَدَنِي بِإِطْلَاقِ سَرَاجِهِ<sup>(٣)</sup> بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، فَتَقَبَّلْتُ ذَلِكَ مُرْغَمًا.

وَكَانَتْ رِحْلَةً سَعِيدَةً مُرِيحَةً مُوَفَّقَةً. وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى « الْبِرَازِيلِ » بَعْدَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا.

## ١٠ - فِي « الْبِرَازِيلِ »

وَقَدْ عَرَّفَنِي الرَّبَّانُ بِأَحَدِ أَعْيَانِ « الْبِرَازِيلِ » - وَكَانَ يَمْلِكُ مَرْزَعَةً لِلْقَصَبِ وَمَصْنَعًا لِلشُّكْرِ - وَأَوْصَاهُ بِخَيْرًا؛ فَشَكَرْتُ لِلرَّبَّانِ عِنَايَتَهُ بِي وَفَضْلَهُ عَلَيَّ.

وَتَفَعَّنِي صُحْبَةُ هَذَا الزَّارِعِ الْكَرِيمِ؛ فَقَدْ عَلَّمَنِي كَيْفَ أَرْزَعُ

(١) خالص إرادتي . (٢) عبدًا . (٣) تركه حراً .

الْقَصَبَ ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ مِنْهُ الشُّكْرَ . وَمَا مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعَةٌ أَعْوَامٍ  
 حَتَّى تَجَعَّتْ أَعْمَالِي كُلُّهَا ، وَأَصْبَحْتُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ .  
 وَكُنْتُ كُلَّمَا ذَكَرْتُ وَطَنِي تَأَلَّمْتُ لِفِرَاقِهِ ، وَاشْتَدَّ حَيْنِي إِلَيْهِ ،  
 وَنَدِمْتُ عَلَى تَرْكِهِ .

• • •

وَتَعَرَّفْتُ - فِي أُمَّنَاءِ إِقَامَتِي - بِكَثِيرٍ مِنَ الزَّارِعِينَ فِي تِلْكَ  
 الْبِلَادِ . فَكُنَّا نَسْمُرُ<sup>(١)</sup> فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، وَكُنْتُ أَذْكَرُ لَهُمْ مَا وَقَعَ لِي  
 فِي أُمَّنَاءِ رِحْلَتِي إِلَى « غَانَةَ » ؛ وَكَيْفَ ظَفِرْتُ بِأَمْوَالٍ طَائِلَةٍ مِنَ  
 الْإِتِّجَارِ بِأَشْيَاءِ تَافِهَةٍ كَالْمِقَصَّاتِ وَالْمُدَى<sup>(٢)</sup> وَالْمَرَايَا وَمَا إِلَى ذَلِكَ .  
 فَاشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُمْ فِي السَّفَرِ إِلَى « غَانَةَ » ، وَأَعَدُّوا سَفِينَةً كَبِيرَةً ، وَطَلَبُوا  
 إِلَيَّ أَنْ أُرَاقِمَهُمْ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ ؛ فَعَاوَدَنِي الْحَيْنُ إِلَى الْبَحْرِ ، وَعَهَدْتُ  
 إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِي أَنْ يُعْنَى بِبِزْرَعَتِي وَمَصْنَعِي فِي أُمَّنَاءِ غِيَابِي .

ثُمَّ أَبْحَرْتُ بِنَا السَّفِينَةَ فِي أَوَّلِ سِبْتِمْبَرِ ١٦٥٩ م ، وَهُوَ نَظِيرُ الْيَوْمِ  
 الَّذِي خَافَرْتُ فِيهِ وَطَنِي وَاسْتَقْبَلْتُ بِهِ عَهْدَ الشَّقَاءِ ، مُنْذُ ثَمَانِيَةِ أَعْوَامٍ .

( ١ ) نتحدث بالليل . ( ٢ ) السكاكين .

الفصل الثالث

## فِي جَزِيرَةِ نَائِيَةِ

١ - هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ

كَانَتْ السَّفِينَةُ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهَا<sup>(١)</sup> لِهَذِهِ الرَّحَلَةِ سَفِينَةً كَبِيرَةً ، قَادِرَةً



عَلَى حَمْلِ مِائَةِ وَعِشْرِينَ  
طَنًا . وَقَدْ زَوَّدْنَاهَا  
بِسِتَّةِ مَدَافِعَ ، وَأَخْتَرْنَا  
لَهَا أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ  
مَلَّاحًا .

وَقَدْ وَضَعْنَا فِيهَا  
الْبَضَائِعَ الَّتِي شَرَيْنَاهَا  
لِنَتَّجَرَ بِهَا فِي بِلَادِ  
« إَفْرِيقِيَّة » ؛ وَهِيَ

(١) مياناما .

مَوْلَانَهُ مِنْ مِقْصَّاتٍ وَقُتُوسٍ وَمَطَارِقٍ وَمَرَايَا صَغِيرَةٍ وَأَزْرَقٍ لِلْمَلَابِسِ  
وَمَا إِلَى ذَلِكَ .

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنَا السَّفِينَةَ مُيَمَّةً<sup>(١)</sup> شَاطِئًا « إِفْرِيْقِيَّة » .  
وَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنَا - فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ عَشَرَ - عَاصِفَةٌ هَوَّجَاهُ لَبِثَتْ  
أَثْنَى عَشَرَ يَوْمًا ، لَا تَهْدَأُ إِلَّا رَيْثَمَا تَشْتَدُّ وَتَعْنَفُ ، وَلَا تَمُرُّ بِنَا لِحِظَةٍ  
إِلَّا أَنْذَرْتَنَا بِالْفَرْقِ .

وَهَكَذَا ظَلَلْنَا تَتَرَقَّبُ الْهَلَاكَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ ، بَعْدَ أَنْ ضَلَلْنَا  
طَرِيقَنَا فِي الْبَحْرِ ، خِلَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي هَبَّتْ فِيهَا الْعَاصِفَةُ .

## ٢ - زَوْرَقُ النِّجَاحِ

ثُمَّ رَأَيْنَا - عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ - أَرْضًا تَبْدُو لَنَا مِنْ بَعِيدٍ ؛  
فَلَا حَ لَنَا أَمَلٌ كَثِيرٌ فِي النِّجَاحِ . وَلَكِنَّا لَمْ نَلْبَثْ أَنْ فَقَدْنَا ذَلِكَ  
الْأَمَلَ ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ . فَقَدْ قَذَفَتِ الْعَاصِفَةُ بِسَفِينَتِنَا  
إِلَى كَيْبٍ<sup>(٢)</sup> مِنَ الرَّمْلِ . وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ قَوِيَّةً عَنِيفَةً ؛

(١) قاصدة . (٢) تل .





فَتَعَطَّلَتِ السَّفِينَةُ ،  
وَعَمَرَتْهَا الْأَمْوَاجُ .  
الْهَائِجَةُ ؛ فَلَمْ نَجِدْ  
مِنَ الْهَلَاكِ بُدًّا ،  
وَعَرَفْنَا أَنَّ آخِرَتَنَا  
قَدْ دَنَتْ .

عَلَى أَنَّنَا لَمْ

نَسْتَسْلِمَ لِلْيَأْسِ ؛ فَاسْرَعْنَا إِلَى زَوْرَقِ النِّجَاةِ ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْبَحْرِ ،  
وَبَدَلْنَا كُلَّ مَا فِي وَسْعِنَا لِلْخِلَاصِ . وَظَلَلْنَا نَجْدُفُ بِكُلِّ قُوَانَا ، حَتَّى  
أَصْبَحْنَا عَلَى مَسَافَةِ مِيلٍ وَنِصْفِ مِيلٍ مِنَ الشَّاطِئِ ، حَيْثُ دَهَمْتَنَا<sup>(١)</sup>  
مَوْجَةٌ طَائِغِيَّةٌ ؛ فَخِيلَ إِلَيْنَا أَنَّ جَبَلًا مِنْ الْمَاءِ قَدْ أَنْقَضَ<sup>(٢)</sup> عَلَيْنَا ،  
فَانْقَلَبَ الزَّوْرَقُ فِي الْحَالِ .

وَلَمْ أَرَ بِجَانِبِي أَحَدًا مِنْ رِفَاقِي ، وَلَمْ أَعْلَمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَصِيرَهُمْ<sup>(٣)</sup> .

(١) غمرتنا . (٢) سقط . (٣) نهايتهم .

## ٣ - النجاة من الغرق

أما أنا فقد لعبت بي الأمواج ، ثم قذفت بي إلى صخرة كبيرة ،  
وكانت الصدمة عنيفة ، فأغمي عليّ ، ثم أفتت بمد قليل . وكان  
من حسن حظي أنني أفتت قبل أن يستأنف البحر ثورته .  
وما رأيت الموجة قادمة عليّ - لتبتلني في طيها - حتى أمسكت  
بالصخرة متشبثاً بكلّ قوتي ، حتى تنحدر<sup>(١)</sup> المياه عني .  
ثم هدأت نائرة البحر قليلاً ؛ فحاولت إمكاني ، وبذلت  
جهدى ، حتى بلغت الشاطئ ، وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة  
من الغرق .

## ٤ - بمد النجاة

وشعرت بفرح شديد حين رأيتني قد نجوت من الهلاك .  
وأجلت لحظي<sup>(٢)</sup> في أنحاء البحر ، أنلمس رؤية أحد من رفاقي ؛

(١) تنصرف . (٢) أدت عني .

فَلَمْ أَرَ إِلَّا مُبْعَاتٍ  
ثَلَاثًا، وَقَلَسُورَةً<sup>(١)</sup>،  
وَنَمْلًا، طَافِيَةً عَلَى  
سَطْحِ الْمَاءِ. فَأَيَقَنْتُ  
أَنْ رِفَاقِي جَمِيعًا  
قَدْ هَلَكُوا، وَلَمْ  
تُكْتَبْ لَهُمُ النِّجَاةُ.



وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمَوْتِ

هَؤُلَاءِ الْأَصْحَابِ، كَمَا تَأَلَّمْتُ لِنَفْسِي أَيْضًا؛ فَقَدْ  
كُنْتُ - حِينئذٍ - فِي حَالٍ يُرْتَى لَهَا<sup>(٢)</sup>، فثِيَابِي  
مُبْتَلَةٌ، وَلَيْسَ مَعِيَ ثِيَابٌ أُسْتَبَدَلُ بِهَا.

وَشَعَرْتُ بِالْمِ الْجُوعِ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أُتَبَلَّغُ بِهِ<sup>(٣)</sup>. وَالْح<sup>(٤)</sup>  
عَلَى الضَّعْفِ، وَتَخَاذَلْتُ أَعْضَائِي، وَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا لِاسْتِرْدَادِ قَوَائِي  
بِمَدِّ أَنْ أَضْنَاهَا التَّعَبُ وَالْكَفَاحُ.

(١) غطاء رأس (٢) تدعو إلى الشفقة . (٣) ما أستحق به الحياة من الطعام (٤) اشتد.

## ه - يَبْنَ أَعْصَانِ شَجَرَةٍ

وَحَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَنِي <sup>(١)</sup> اللَّيْلُ ؛ فَأَصْبَحَ فَرِيَسَةً لِلْوُحُوشِ ، وَلَيْسَ  
مَعِيَ سِلَاحٌ أَصْطَادُ بِهِ - مِنْ الْحَيَوَانِ - مَا أَقَاتُ بِهِ ، أَوْ أَدْفَعُ بِهِ  
عَنِّي غَائِلَةَ الْوُحُوشِ الْمَادِيَةِ <sup>(٢)</sup> إِذَا حَاوَلَتْ أَفْتِرَاسِي . فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ  
- حِينئِذٍ - غَيْرُ مُدِيَّةٍ <sup>(٣)</sup> لِأَغْنَاءِ فِيهَا <sup>(٤)</sup> . فَتَمَثَّلَ لِي حَرْجٌ مَرَكِزِي ،  
وَرَأَيْتُ الْمُسْتَقْبَلَ مَرْهُوبًا <sup>(٥)</sup> مُظْلَمًا . وَصِرْتُ أَعْدُو <sup>(٦)</sup> فِي كُلِّ مَكَانٍ ،  
وَقَدْ أَذْهَلَنِي الْفَزَعُ ، وَأَنَسَانِي الْخَوْفُ كُلَّ شَيْءٍ .

مِمَّ أَقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ فَأَشْتَدَّ رُغْبِي ، وَلَمْ أَجِدْ لِي مَنَاصًا <sup>(٧)</sup> مِنْ  
التَّفْكِيرِ فِي مَكَانِ نَوْمِي . فَتَخَيَّرْتُ شَجَرَةً كَبِيرَةً بِالقُرْبِ مِنِّي ،  
وَجَلَسْتُ بَيْنَ أَعْصَانِهَا الْمُشْتَبِكَةِ . وَكُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلَى أَقْصَى  
دَرَجَاتِ الْإِغْيَاوِ وَالْتِمَبِ ؛ فَغَلَبَنِي النَّوْمُ طُولَ لَيْلِي ، وَلَمْ أُسْتَيْقِظْ

(١) يفاجئني . (٢) شر الحيوانات المفترسة . (٣) سكية . (٤) لا فائدة منها .  
(٥) خوفًا . (٦) أجرى . (٧) نجاة .



إِلَّا فِي ضُحَى الْغَدِ ؛ فَرَأَيْتُ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً ، وَالْجَوَّ صَخَوًا ، وَالْبَحْرَ  
هَادِنًا جَمِيلًا .

### ٦ - السَّفِينَةُ

وَأَجَلْتُ لِحَاظِي<sup>(١)</sup> فِي أَرْجَاءِ الْبَحْرِ ؛ فَاشْتَدَّتْ دَهْشَتِي حِينَ رَأَيْتُ  
السَّفِينَةَ جَائِمَةً<sup>(٢)</sup> عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ . وَكَانَ الْمَدُّ<sup>(٣)</sup> قَدْ أَخْرَجَهَا  
مِنَ الْكَثِيبِ<sup>(٤)</sup> ، وَقَذَفَ بِهَا قَرِيبًا مِنَ الصُّخْرَةِ الَّتِي قَذَفْتَنِي

(١) درت بصرى . (٢) باقية . (٣) امتداد الماء . (٤) التل من الرمل .

إِلَيْهَا الْأَمْوَاجُ أَمْسٍ . فَمَنْ<sup>(١)</sup> لِي رَأْيٌ سَدِيدٌ<sup>(٢)</sup> ، ذَلِكَ : هُوَ أَنْ أُسْرِعَ  
إِلَيْهَا ، فَأَخُذَ مِنْهَا أَمًّا مَا أحتاجُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفَرَةِ ، قَبْلَ  
أَنْ تَطغَى الْأَمْوَاجُ عَلَى السَّفِينَةِ ، وَيَطْوِيَهَا الْبَحْرُ فِي قَرَارِهِ . وَشَجَعَنِي  
عَلَى ذَلِكَ هُدُوءُ الْبَحْرِ وَانْخِفَاضُ الْمَدِّ .

وَكَانَتْ الْحَرَارَةُ شَدِيدَةً وَقَدْ أَظْهِرَةَ ؛ فَخَلَمْتُ ثِيَابِي ، وَسَبَخْتُ  
فِي الْمَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ السَّفِينَةَ . وَدُرْتُ حَوْلَهَا ؛ فَلَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً  
لِلصُّمُودِ إِلَيْهَا لِأَرْتَفَاعِهَا . وَقَدْ كَذْتُ أَيَّاسُ مِنْ إِدْرَاكِ هَذِهِ الْعَالِيَةِ ،  
لَوْلَا أَنَّي ظَفِرْتُ بِحَبْلِ مُتَدَلٍّ ؛ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ حَتَّى صَعِدْتُ إِلَى ظَهْرِ  
السَّفِينَةِ بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ . وَرَأَيْتُ الْمَاءَ قَدْ نَفَذَ إِلَى أَرْضِ السَّفِينَةِ ؛  
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ سَطْحَهَا ، وَلَمْ يُتْلَفْ كُلُّ مَا تُحْوِيهِ مِنْ مَثُونَةٍ  
وَذَخَائِرٍ . وَكَانَ أَوَّلَ مَا يَشْغَلُنِي - حِينَئِذٍ - هُوَ الْبَحْثُ عَنِ  
الطَّعَامِ وَالْمَاءِ . فَأَكَلْتُ مِنْ الزَّادِ حَتَّى شَبِعْتُ ، وَشَرِبْتُ مِنَ الْمَاءِ  
حَتَّى أُرْتَوَيْتُ .

## ٧ - المَرْكَبُ الصَّغِيرُ

وَلَمْ أُضِعْ وَقْتِي عَبَثًا . فَأَسْرَعْتُ إِلَى جَمْعِ الْأَلْوِاجِ الْمُتَنَائِرَةِ ،  
 وَالْأَعْمِدَةِ الْمُحَطَّمَةِ ،  
 وَالْأَشْرَعَةِ الْمُمَزَّقَةِ ،  
 وَأَلَّفْتُ مِنْهَا مَرْكَبًا  
 صَغِيرًا . ثُمَّ كَسَرْتُ  
 ثَلَاثَةَ صَنَادِيقَ  
 وَأَفْرَعْتُ مَا فِيهَا .  
 ثُمَّ أَنْزَلْتُهَا بِالْحِبَالِ  
 إِلَى ذَلِكَ الْمَرْكَبِ  
 الصَّغِيرِ ، وَمَلَأْتُهَا



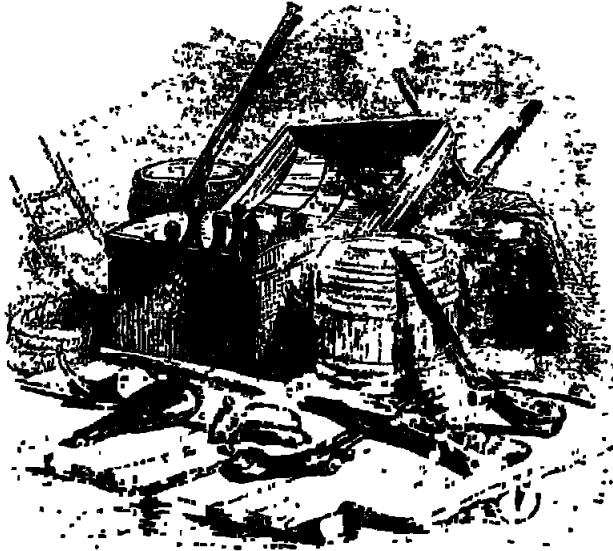
بِالْخُبْزِ وَالرُّزِّ وَالْجُبْنِ وَالْقَدِيدِ<sup>(١)</sup> وَرَأَيْتُ فِي الْمَخْزَنِ  
 كَمِيَّةً قَلِيلَةً مِنَ الْقَمِيحِ وَالشَّعِيرِ وَالْبُرْغُلِ ، كُنَّا قَدْ  
 أَحْضَرْنَاهَا لِتَغْدِيَةِ طُيُورِنَا وَدَوَاجِنِنَا؛ فَوَضَعْتُهَا فِي أَحَدِ الصَّنَادِيقِ .

(١) اللحم اليابس المحفوظ .

وإِنِّي لَمُنْهَمِكُ فِي عَمَلِي ، إِذْ لَاحَتْ مِنِّي التَّفَاتَةُ ؛ فَرَأَيْتُ أَلَمَدَّ  
يَرْتَقِعُ إِلَى الشَّاطِئِ وَيَجْدِبُ بُيَايَ الْفَرِيقَةِ . وَقَدْ تَأَلَّمْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا  
طَاقِيَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ .

\* \* \*

عَلَى أَنِّي رَأَيْتُ فِي السَّفِينَةِ - مِنَ الثِّيابِ - مَا عَوَّضَنِي عَنْهَا .  
فَأَخَذْتُ مِنْهَا مَا اسْتَطَعْتُ ،  
وَحَمَلْتُ مَعِيَ - مِنْ  
الْأَلَاتِ وَالْمِيدِ - مَا لَا غِنَى  
لِي عَنْهُ . وَقَدْ ظَفَرْتُ  
بِصُنْدُوقِ نَجَّارٍ ؛ فَكَانَ  
عِنْدِي أَثْمَنَ مِنْ كُنُوزِ  
الْأَرْضِ قَاطِبَةً<sup>(١)</sup> ، فَأَلْقَيْتُ  
بِهِ فِي الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ .



\* \* \*

وَوَظَفَرْتُ - فِي أَثْنَاءِ بَحْثِي - بِمُسَدَّسَيْنِ وَبُنْدُقَيْتَيْنِ وَسَيْفَيْنِ قَدِيمَيْنِ يَمْلُوهَا

(١) جِمْاء .





الصدأ، وكيسٍ مِنَ الرصاصِ،  
 وَعِدَّةٌ أَكْيَاسٍ مِنَ البَارُودِ .  
 وَكَانَ بِالسَّفِينَةِ بِرَامِيلُ  
 ثَلَاثَةٌ مَمْلُوءَةٌ بِرُودًا، فَبَحَثُ  
 عَنْهَا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْهَا ؛  
 فَرَأَيْتُ المَاءَ قَدْ أَتْلَفَ بِرَمِيلاً  
 مِنْهَا . فَحَمَلْتُ البَرْمِيلَيْنِ  
 البَاقِيَيْنِ إِلَى المَرْكَبِ ، وَلَمْ  
 يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَذْهَبَ  
 بِرَكْبِي إِلَى الشَّاطِئِ . وَظَفَرْتُ  
 — بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيلٍ —

بِثَلَاثَةِ مَجَادِيْفٍ مُحَطَّمَةٍ ، وَمِنْشَارَيْنِ وَمِطْرَقَةٍ ؛ فَاسْتَوَدَعْتُهَا سَفِينَتِي (١) .  
 وَحَمَلْتَنِي أَلَمُّدُ إِلَى الشَّاطِئِ ، حَيْثُ أَتَّهَى بِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَبْعُدُ  
 كَثِيرًا عَنِ المَكَانِ الَّذِي حَلَلْتُ فِيهِ أَمْسٍ .

(١) حفظتها فيها .

## الفصل الرابع

### الوطن الجديد

#### ١ - عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ

كَانَ أَوَّلَ مَا عُنَيْتُ بِهِ أَنْ أَرْتَادَ<sup>(١)</sup> هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَجْهُولَةَ الَّتِي  
قَدَفْتَنِي إِلَيْهَا الْمَقَادِيرُ، لَعَلِّي أَهْتَدِي إِلَى مَسْكَنِ آوِي إِلَيْهِ .  
وَكَنتُ - حينئذٍ - أَجْهَلُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ . فَلَمَّ أَكُنْ  
أَعْرِفُ : هَلْ قَدَفْتَنِي الْأَمْوَاجُ إِلَى جَزِيرَةٍ أَمْ قَارَةٍ ؟ إِلَى أَرْضٍ مَأْهُولَةٍ ،  
أَمْ مَوْحِشَةٍ ؟ إِلَى مَكَانٍ أَمِينٍ مُنْظَمِينَ ، أَمْ مَخُوفٍ مَرْهُوبٍ ؟ إِلَى أَرْضٍ  
يَقْطُنُهَا الْمُتَحَضِّرُونَ ، أَمْ الْهَمِجُ ، أَمْ الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ ؟  
وَأَجَلْتُ لِحَاطِي فِي أَنْحَائِهَا ؛ فَرَأَيْتُ جَبَلًا شَاهِقًا يَلُوحُ لِي عَلَى  
مَسَافَةٍ مِيلٍ تَقْرِيْبًا . فَأَخَذْتُ بُنْدُقِيَّةً وَمُسَدَّسًا ، وَسِرْتُ حَتَّى بَلَغْتُهُ .  
فَرَأَيْتُهُ وَعَرَ الْمُرْتَقَى<sup>(٢)</sup> ، وَلَمْ أَبْلُغْ قِمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ .

(١) أتعرف . (٢) صعب المصعد .

وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْحُزْنُ وَالْأَلَمُ ، إِذْ عَرَفْتُ أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي حَلَمْتُهُ لَيْسَ  
إِلَّا جَزِيرَةً . وَكُنْتُ - كَيْفَمَا أَدْرْتُ لِحَاظِي - لَا أَجِدُ إِلَّا الْبَحْرَ  
يَكْتَفِفُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ <sup>(١)</sup> ، وَشَبَحَ جَزِيرَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ تَلُوحَانِ لِي عَلَى  
بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ غَرْبًا .

وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ الَّتِي حَلَمْتُهَا عَازِبَةٌ <sup>(٢)</sup> ، قَرَأْتُ غَيْرَ مَأْهُولَةٍ <sup>(٣)</sup> ،  
اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهَا وُحُوشٌ مُفْتَرَسَةٌ . أَمَّا الْإِنْسُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى  
وُجُودِهِمْ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُجْدِبَةِ الْقَاحِلَةِ <sup>(٤)</sup> .

## ٢ - الطَّلَقَةُ الْأُولَى

عَلَى أَنْنِي رَأَيْتُ جَمَهْرَةً <sup>(٥)</sup> مِنَ الطُّيُورِ الْقَرِيبَةِ - وَأَنَا عَائِدٌ إِلَى  
حَيْثُ جِئْتُ - فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّ إِلَى طَائِرٍ مِنْهَا كَانَ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ  
أَشْجَارِ الْغَابَةِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي .

وَلَعَلَّ هَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ تُطَلَقُ فِيهَا بُنْدُقِيَّةٌ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ أ  
وَقَدْ ذُعِرَتِ الطُّيُورُ حِينَ سَمِعَتْ هَذِهِ الطَّلَقَةَ الْمَفْرَعَةَ ، وَاشْتَدَّ

(١) يحيط بها . (٢) بعيدة . (٣) لا يسكبها احد .

(٤) التي لا نبات فيها . (٥) جماعة .

ارْتَبَاكُهَا ، وَعَلَتْ صَيْحَاتُهَا . وَرَأَيْتُ هَذَا الطَّائِرَ يُشْبِهُ الْبَاشِقَ ، وَإِنْ  
كَانَ قَلِيلَ اللَّحْمِ ، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ .

### ٣ - كُوخٌ مِنْ صِنَادِيقَ

ثُمَّ عُدْتُ أَدْرَاجِي<sup>(١)</sup> ، وَظَلَلْتُ أَفْرِغُ مَا أَخْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ  
وَأَرْتَبُهُ ، حَتَّى انْقَضَى النَّهَارُ ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَنَامُ  
مُطْمَئِنًّا ، آمِنًا مِنْ غَارَةِ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ ؟ ثُمَّ اهْتَدَيْتُ - بَعْدَ  
افْتِكَارٍ طَوِيلٍ - إِلَى طَرِيقَةٍ نَاجِحَةٍ ؛ فَأَذْنَيْتُ<sup>(٢)</sup> الصِّنَادِيقَ الَّتِي  
أَخْضَرْتُهَا مِنَ السَّفِينَةِ ، ثُمَّ اتَّخَذْتُ مِنْهَا كُوخًا آوِي إِلَيْهِ فِي تِلْكَ  
اللَّيْلَةِ . وَرَأَيْتُنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى حِبَالِ السَّفِينَةِ وَأَشْرَعْتَهَا ؛ فَتَوَيْتُ الذَّهَابَ  
إِلَيْهَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي وَقَدْ انْخِضَ الْمَدُّ ، قَبْلَ أَنْ تُفْرَقَهَا أَوَّلُ عَاصِفَةٍ  
تَهْبُ عَلَيْهَا مِنَ الْبَحْرِ .

### ٤ - عَوْدَةٌ إِلَى السَّفِينَةِ

وَلَمَّا جَاءَ الْغَدُ خَلَمْتُ مَلَابِسِي إِلَّا قَيْصًا مُزَقًّا وَسِرْوَالًا وَنَمْلًا خَفِيفَةً ،

(١) رجعت من حيث أتيت . (٢) قربت .

وَذَهَبْتُ إِلَى السَّفِينَةِ ، وَأَخْضَرْتُ مِنْهَا كَثِيرًا مِنَ الدُّخَانِ <sup>(١)</sup> الَّتِي  
 كُنْتُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا . وَقَدْ ظَفِرْتُ بِغِرَارَتَيْنِ <sup>(٢)</sup> مَمْلُوءَتَيْنِ  
 مَسَامِيرَ ، كَمَا ظَفِرْتُ بِمِدَّةِ النَّجَارَةِ ، فِيهَا مِسْنٌ ، وَاثْنَتَا عَشْرَةَ  
 قَدُومًا ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَجَمَعْتُ كُلَّ مَا وَجَدْتُهُ - مِنَ الثِّبَابِ وَأَشْرَعِي  
 السَّفِينَةِ وَالْأَغْطِيَةِ - وَعُدْتُ إِلَى كُوخِي الصَّغِيرِ . وَقَدْ شَجَعَنِي هَذَا النَّجَاحُ ،  
 وَأَكْسَبَنِي قُوَّةً وَنَشَاطًا عَظِيمَيْنِ . وَكُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَلْتَمِهِمُ بَعْضُ الْوُحُوشِ  
 مَا تَرَكَتُهُ مِنَ الزَّادِ <sup>(٣)</sup> ، وَلِكِنِّي أَطْمَأْنَنْتُ - بَعْدَ عَوْدَتِي - وَزَالَتْ  
 مَخَافِي ؛ إِذْ لَمْ أَعُثِرْ لِهَيْدِهِ الْوُحُوشِ عَلَى أَثَرٍ . عَلَى أَنَّي رَأَيْتُ حَيَوَانًا  
 - أَشْبَهَ شَيْءًا بِالْقِطِّ - جَالِسًا عَلَى أَحَدِ الصَّنَادِقِ . وَمَا رَأَيْتُ حَتَّى قَرَّ  
 مِنِّي ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَيَّ بَعْدَ خُطُواتٍ قَلِيلَةٍ ، وَظَلَّ يُنْعِمُ <sup>(٤)</sup> نَظَرَهُ فِيَّ مِنْ  
 غَيْرِ أَنْ يَبْدُوَ عَلَيَّ مَلَامِحِهِ الْخَوْفِ . فَصَوَّبْتُ إِلَيْهِ بُنْدُوقِي ، فَلَمْ  
 يَتَحَرَّكْ ، وَلَمْ يُحَاوِلِ الْفِرَارَ . فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ قِطْمَةً مِنَ الْخُشْكَانِ <sup>(٥)</sup> ،  
 فَاقْتَرَبَ مِنْهَا وَشَمَّهَا وَتَذَوَّقَهَا ، ثُمَّ ابْتَلَمَهَا مِنْ فَوْرِهِ ، وَبَدَأَ عَلَيَّ مَلَامِحِهِ  
 السُّرُورَ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَطْلُبُ غَيْرَهَا ، فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئًا ، لِأَنَّ زَادِي قَلِيلٌ ،

(١) الأشياء الثمينة المحفوظة . (٢) زكيتين . (٣) الطعام الذي يتخذ للسفر .

(٤) يدقق . (٥) السكويت .

وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أُسْرِفَ<sup>(١)</sup> فِي الْأَخْذِ مِنْهُ .  
وَلَمَّا يَتَسَّ الْقِطُّ مِنْ عَطَائِي ، ذَهَبَ إِلَى سَبِيلِهِ !

### ٥ - إَعْدَادُ الْمَسْكَنِ

وَفَكَّرْتُ فِي إَعْدَادِ مَسْكَنِ يَوْمِيٍّ مِنَ الْوُحُوشِ ، وَيَحْفَظُ أُمَّتِي  
مِنَ التَّلَفِ ، وَيَقِيهَا غَائِلَةَ الْأَمْطَارِ وَحَرَارَةَ الشَّمْسِ . فَبَنَيْتُ خَيْمَةً  
مِنَ الشَّرَاجِ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ ، وَبَثَّهَا بِالْأَوْتَادِ<sup>(٢)</sup> ، وَوَضَعْتُ فِي تِلْكَ  
الْخَيْمَةِ كُلَّ مَا أَحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ . ثُمَّ سَوَّرْتُ الْخَيْمَةَ<sup>(٣)</sup>  
بِالصَّنَادِيقِ وَالْبَرَامِيلِ ، وَسَدَدْتُ بِأَبْهَامِ الدَّاخِلِ بِالْأَوَاجِ مِنَ الْخَشَبِ ،  
وَوَضَعْتُ خَلْفَهَا صُنْدُوقًا فَارِغًا . ثُمَّ وَضَعْتُ مُسَدَّسِينَ تَحْتَ وَسَادَتِي ،  
وَنِمْتُ أَهْدَأُ مَا أَكُونُ بِالْأَحْتَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ .

### ٦ - ذَخَائِرُ السَّفِينَةِ

وَلَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّي حَصَلْتُ عَلَى مَا يَكْفِينِي ، بَلْ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَتِي .

(١) أكثر . (٢) قطع من الخشب ونحوه مثبتة في الأرض . (٣) جعلت لها سوراً .

ولكن بقاء السفينة أطمعني في الحصول على كل ذخائرها ، ما دمت قادراً على الذهاب إليها ، فلم يهدأ لي بال ، ولم يقر لي قرار . وعقدت العزم على التزود<sup>(١)</sup> منها كبل يوم . وقد ذهبت إليها - بعد ذلك - ستة أيام متعاقبة<sup>(٢)</sup> ، وخيل لي أنني قد أفرغت كل ما فيها من زاد و ذخائر . ولكنني دهشت في اليوم السابع ؛ إذ وجدت برميلاً كبيراً مملوئاً خشكنا<sup>(٣)</sup> . فأفرغته ، بعد أن وضعتني في قطع من الأشرعة ، ثم عدت إلى خيمتي مسروراً راضياً .

#### ٧ - الزوارة الأخيرة

وذهبت في اليوم التالي إلى السفينة - كما درتي - ولكنني شعرت بهبوب الرياح ، فلم أبال ، ولم أنس<sup>(٤)</sup> عن عزيمتي . وقد ظفرت في هذه الرحلة بثلاث مواش<sup>(٥)</sup> ، وكانت في غرفة الربان ، كما ظفرت بمقتنين صغيرين وعدة ملاحق ، وما إلى ذلك من الأدوات النافعة . ثم لاحت مني التفاتة ، فرأيت ستة وثلاثين جنيهاً من الذهب والفضة .

(١) الأخذ . (٢) متوالية . (٣) بكويتة . (٤) لم أرجع .

(٥) جمع موسى ، وهي الآلة التي يعلق بها .

فَابْتَسَمْتُ - حِينَئِذٍ - سَاخِرًا ؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي بِهَذِهِ النُّقُودِ حَاجَةً فِي  
 تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ . وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِالْقَائِمَا فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ  
 عَنْ ذَلِكَ ، وَوَضَعْتُهَا فِي صُرَّةٍ مِنَ الْخَيْشِ . وَرَأَيْتُ السَّمَاءَ تَتَلَبَّدُ  
 بِالغَيُْومِ ؛ فَأَسْرَعْتُ بِالْمَوْدَةِ إِلَى كُوخِي . وَقَدْ لَقِيتُ عَنْهُ شَدِيدًا فِي  
 مُعَالَبَةِ الْأَمْوَاجِ ، وَلَكِنِّي وَصَّاتُ إِلَى الشَّاطِئِ سَالِمًا بِحَمْدِ اللَّهِ .

### ٨ - غَرَقُ السَّفِينَةِ

وَمَا عُدْتُ إِلَى خِيَمَتِي حَتَّى عُنْفَتِ الرِّيحُ ، وَأَشْتَدَّ اصْطِخَابُ  
 الْأَمْوَاجِ ، وَظَلَّ الْبَحْرُ مُضْطَرِبًا هَائِجًا طُولَ اللَّيْلِ .  
 وَلَمَّا أَقْبَلَ الصَّبَاحُ دُرْتُ بِالْحَاطِي فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ؛ فَلَمْ أَجِدْ  
 لِلْسَّفِينَةِ أَثْرًا . فَعَلِمْتُ أَنَّ الْعَاصِفَةَ أَغْرَقَتْهَا ؛ فَلَمْ أَحْزَنْ عَلَيْهَا ، لِأَنِّي  
 لَمْ أُدْخِرْ وَسْعًا فِي نَقْلِ كُلِّ مَا أُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا فِي الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ .

### ٩ - أَلَيْتُ الْجَدِيدُ

لَمْ يَنْقِ عَلَيَّ - بَعْدَ ذَلِكَ - إِلَّا أَنْ أَفَكَّرَ فِي وَسِيلَةِ تَعُدُّ عَنِّي



غائلة المعتدين ، من بني الإنسان ، أو من الوحوش المفترسة . وظللتُ  
أفكرُ في بناء البيت الذي أشيده ، ولم أدر : هل أحفرُ كهفًا أم أقيمُ  
خيمةً ؟ ثم قرأتُ رأيي على أن أجمعَ بينهما . ورأيتُ المكان الذي حللتهُ  
لا يصلحُ لإقامتي إقامةً دائمةً ؛ لأنه في أرضٍ منخفضةٍ سيخةٍ<sup>(١)</sup> وبقاي  
فيه مضرٌ بصحتي ، وهو - إلى ذلك - ليس قريبًا من الماء العذب .  
فبحثتُ عن مكانٍ آخرٍ أكثرَ ملاءمةً لي . وهداني البحثُ إلى المكان  
الذي أردتُ ؛ فقد وفقتُ إلى سهلٍ صغيرٍ في سفحِ تلٍ مرتفعٍ صخريٍّ ،  
وبجانبه ماءٌ عذبٌ ، وهو مشرفٌ على البحرِ . وكان في أعلى ذلك التلِّ  
صخرةٌ نائيةٌ<sup>(٢)</sup> تقيني وهيج الشمسِ ، وتحميني من أعتداء المغيرين ، من  
إنسٍ وحيوانٍ . وكانت تلك الصخرةُ محفورةً تُشبهُ الكهفَ ؛ فبنيتُ  
خيمتي أمامها ، وبنيتُ أوتادها ؛ وشعرتُ أنني أصبحتُ بآمنٍ من كلِّ أعتداء .  
ولم أجعلْ لبنتي بابًا أدخله ؛ بل سلمًا أتسلقه . فإذا دخلتُ البيتَ رفعتُ  
السلمَ إلى داخله ، ونمتُ - طولَ ليلي - ناعمَ البالي ، مطمئنًا ، قريحَ العينِ .  
ثم نقلتُ في هذا الحصنِ كلَّ ما لدى من متاعٍ وزادٍ وذخائرٍ . ورفعتُ

(١) ذات نز وبلح . (٢) مرتفعة .

— فِي أَعْلَى الْمَسْكَنِ — سَقْفًا مَوْلَانَا مِنْ شِرَاعَيْنِ : أَحَدُهُمَا فَوْقَ الْآخَرِ ،  
وطلَّيْتُهُمَا بِالْقَارِ (١) ، ثُمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي إِلَى حَفْرِ مَكَانٍ فِي تِلْكَ الصَّخْرَةِ  
لِيَكُونَ مَخْزِنًا



صَغِيرًا فِي مَنْزِلِي .

وَوَلَّيْتُ جَادًا فِي عَمَلِي .

وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ

بَرَقَ الْبَرْقُ وَرَعَدَ

الرَّعْدُ ؛ فَاشْتَدَّ

جَزَعِي ، وَخَشِيتُ

أَنْ يَشْتَمَلَ الْبَارُودُ ،

فَيَدْمِرَ كُلَّ شَيْءٍ فِي

لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَتَمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي كُلَّهَا إِلَى تَأْمِينِي (٢) مِنْ هَذَا الْخَطَرِ ؛ فَصَنَعْتُ  
أَكْيَاسًا كَثِيرَةً ، وَوَضَعْتُ فِيهَا الْبَارُودَ ، وَفَرَّقْتُهَا فِي أَنْحَاءِ مُتَبَاعِدَةٍ ؛

(١) الزيت . (٢) هناك . (٣) حفظي .

حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي أَحَدِهَا لَمْ تَتَّصِلْ بِغَيْرِهِ .  
 وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَمِنْتُ أَنْ يَشْتَمِلَ كُلُّ مَا عِنْدِي مِنَ الْبَارُودِ مَرَّةً  
 وَاحِدَةً . وَقَدْ أَنْجَزْتُ هَذَا الْعَمَلَ فِي خِلَالِ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مُتَوَالِيَةً ،  
 وَوَضَعْتُ الْبَارُودَ فِي مِائَةِ غِرَارَةٍ <sup>(١)</sup> أَخْفَيْتُهَا فِي ثُقُوبِ الصَّخْرِ ، لِأَمْنِ  
 عَلَيْهَا الرُّطُوبَةَ . وَكَانَتْ ذَخِيرَتِي مِنَ الْبَارُودِ لَا يِقْلُ وَزْنُهَا عَنْ مِائَةِ  
 وَأَرْبَعِينَ رِطْلًا . وَقَدْ اشْتَدَّ حَرِّصِي عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَرْتَحِ بَالِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ  
 وَثِقْتُ مِنْ سَلَامَتِهَا ، وَذَهَبَ خَوْفِي عَلَيْهَا مِنَ التَّلَفِ .

---

(١) زكية .

الفصل الخامس

## الزّلالُ

١ - جِداءِ الجَزيرةِ

لَمْ أَكْفَ عَنْ الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا فِي فتراتٍ قَلِيلَةٍ ، كُنْتُ  
أَخْرُجُ - فِي أُمَّنَائِهَا -  
مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي  
كُلِّ يَوْمٍ ، لِأَرْوِحَ  
عَنْ نَفْسِي مِنْ عَنَاءِ  
الْعَمَلِ ، أَوْ لِأَصْطَادَ  
بَعْضَ الْحَيَوانِ لِمَذايِي ،  
أَوْ لِأَرْتَادِ أَنْعِاءِ  
الجَزيرةِ المَجْهُولَةِ .



وَقَدْ اسْتَرْعَى بَصْرِي

— فِي أَوَّلِ يَوْمٍ — مَا بِالْجَزِيرَةِ مِنْ جَدْيَانِ ، وَابْتَهَجْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا .  
 وَلَكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَطُلْ ؛ لِأَنِّي رَأَيْتُهَا مُتَوَحِّشَةً مَا كِرَةً سَرِيعَةً  
 الْعَدُوِّ ، لَا أَكَادُ أَقْتَرِبُ مِنْهَا حَتَّى تَفِرَّ هَارِبَةً . وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ  
 أَصْطَادَ جَدِيًّا مِنْ هَذِهِ الْجِدَاءِ ، فَلَمْ أُسْتَطِعْ ؛ لِسُرْعَتِهَا وَخَفَّتِهَا . وَلَكِنَّ  
 الْيَأْسَ لَمْ يَغْلِبْنِي عَلَى أَمْرِي ، وَظَلَلْتُ أُرَاقِبُ حَرَكَاتِهَا فِي رَوْحَاتِهَا  
 وَجِيئَاتِهَا ؛ فَرَأَيْتُهَا تَفْرَعُ مِنِّي هَارِبَةً ، إِذَا أَقْبَلْتُ عَلَيْهَا مِنَ الْوَادِي  
 وَكَانَتْ فَوْقَ الصُّخُورِ . فَإِذَا كُنْتُ أَنَا فَوْقَ الصُّخُورِ وَكَانَتْ هِيَ  
 فِي الْوَادِي تَرَعِي ، لَمْ تَتَحَرَّكَ ، وَلَمْ تَشْعُرْ بِمَقْدَمِي . فَعَلِمْتُ أَنَّ  
 بَصَرَهَا مُنْصَرَفٌ إِلَى أَسْفَلَ ، فَهِيَ لَا تَرَفَعُهُ إِلَى فَوْقٍ ؛ وَثُمَّ لَا تَرَى  
 مَا فَوْقَهَا . وَرَأَيْتُ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ تُسَكِّنُنِي مِنْ أَقْتِنَاصِهَا<sup>(١)</sup> بِسُهُولَةٍ ،  
 هِيَ أَنْ أَشْرِفَ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقِ تِلْكَ الصُّخُورِ ، وَأَصَوِّبَ رِصَاصِي إِلَيْهَا .  
 وَقَدْ نَجَحْتُ هَذِهِ الْحِيلَةَ ، وَأَصَابْتُ أَوَّلُ طَلْقَةٍ مِنْ بُنْدُقِيَّتِي مَاعِزًا فَقَتَلْتُهَا .  
 وَكَانَ مَعَهَا جَدِي صَغِيرٌ ؛ فَحَمَلْتُهَا عَلَى كَتِفِي ، وَتَبِعَنِي صَغِيرُهَا حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى  
 مَسْكِنِي . وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي مُلَاطَفَةِ الْجَدْيِ لَعَلَّ يُسْتَأْنَسُ بِي ؛ فَلَمْ أَفْلِحْ .

وَقَدْ أَبَى أَنْ يَأْكُلَ مَا قَدَّمْتُهُ لَهُ مِنْ الطَّعَامِ ؛ فَاضْطُرِرْتُ إِلَى ذَبْحِهِ وَأَكْلِهِ .

## ٢ - مُذَكَّرَاتٌ يَوْمِيَّةٌ

وهكذا استطعت أن أنظّم حياتي - منذ وطلعت<sup>(١)</sup> قدماي تلك  
الجزيرة النائية الفقر<sup>(٢)</sup> - لأول مرة في اليوم  
المتمم للثلاثين من « سبتمبر » . وكان الوقت  
خريفًا ، وحرارة الشمس مُحتملة .

وكانت الجزيرة التي  
حللتها واقمة على الدرجة  
التاسعة من شمال خط  
الاستواء تقريبًا .

وما مرّ على عشرة  
أيام حتى خشيت أن  
أنسى تواريخ الأيام .



( ٢ ) الخالية .

( ١ ) داست .

وَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي كُرَّاسَةٌ وَلَا وَرَقٌ وَلَا مِدَادٌ ، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَدُونُ  
لِلْأَيَّامِ تَارِيخَهَا . وَبَعْدَ أَفْكَارٍ طَوِيلٍ أَقَمْتُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ جِدْعًا  
مُرْتَمًا مِنَ الْخَشَبِ ، وَحَفَرْتُ فِيهِ مَا يَأْتِي :

« حَلَلْتُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ فِي ٣٠ مِنْ سِبْتَمْبَرِ سَنَةِ ١٦٥٨ م . »

ثُمَّ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخْفِرَ خَطًّا صَغِيرًا فِي كُلِّ يَوْمٍ . فَإِذَا  
انْتَهَى الْأُسْبُوعُ حَفَرْتُ خَطًّا مُزْدَوِجًا . فَإِذَا انْتَهَى الشَّهْرُ حَفَرْتُ مُرْتَمًا  
صَغِيرًا . وَقَدْ تَمَكَّنْتُ بِهِذِهِ الْوَسِيلَةِ مِنْ تَعْرِفِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ وَالشَّهْرِ  
وَالسَّنَةِ ، وَأَمِنْتُ الْخَطًّا وَالنُّسْيَانَ .

### ٣ - الْأَصْدِقَاءُ الْأَوْفِيَاءُ

فَاتَنِي أَنْ أذْكَرُ لِلْقَارِيءِ أَنَّ السَّفِينَةَ - الَّتِي غَرِقَتْ - كَانَ بِهَا  
قِطَّانٌ وَكَلْبٌ . وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهَا الْقَدْرُ أَنْ تَكُونَ قِصَّتُهَا مُنْتَزَجَةً  
بِقِصَّتِي . فَقَدْ أَخْفَرْتُ الْقِطَّانِينَ مَعِي ، وَقَفَزَ الْكَلْبُ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى  
الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الشَّاطِئِ سِبَاحَةً ، وَلَحِقَ بِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي .  
وَقَدْ ظَلَّ الْكَلْبُ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ يَخْدُمُنِي عِدَّةَ سَنَوَاتٍ .

وكان دَقِيقَ المَلاحَظَةِ ، حادَّ الذِّكاهِ ، أشبَهَ بِالخادِمِ الذِّكِيِّ الحاذِقِ<sup>(١)</sup> .  
 وكانَ - في الحَقِيقَةِ - خَيْرَ صَدِيقٍ وخادِمٍ لِي . وقد أُعجِبْتُ  
 بِذِكاؤِهِ وفِطنتِهِ ودِقَّةِ مَلاحَظَتِهِ ، فَقَدَّرَ أَيْتُهُ :  
 فِي كُلِّ شَيْءٍ يُشْبِهُهُ إِلَّا فِي الكَلَامِ

#### ٤ - أثاثُ البَيتِ

ذَكَرْتُ لِلقارِي أَنِّي نَقَلْتُ ذَخائِرِي وَزادِي إلى بَيتِي الجَدِيدِ .  
 وَقَدَّ وَضَعْتُها - أولَ الأمرِ - عَلى غَيرِ تَرتِيبٍ ؛ فَشَمَلتُ مِن بَيتِي فراغًا  
 كَثيرًا ، حَتَّى صَمَبَ عَلَيَّ أَن أَجِدَ فِيهِ مُتَسَمًا لِلحَرَكَةِ . فَمَدَدتُ إلى حَفْرِ  
 المَغارَةِ لِتَوَسُّعِها . وَقَدَّ وَاليتُ العَمَلِ - في ذلكَ - أَيامًا حَتَّى وَقَّفتُ  
 إلى غايَتِي . ثمَّ عَن<sup>(٢)</sup> لِي أَن أَصنَعَ أَهمَّ ما أحتاجُ إِلَيهِ مِن أَثاثِ الدَّارِ ؛  
 فَبَدَأْتُ بِصُنْعِ كُرْسِيِّ ومائِدَةٍ . وَقَدَّ أَكسَبَنِي العَمَلُ المُتَواصِلُ مَراةً نادرَةً  
 سَهَلتُ عَلَيَّ صُنْعَ كُلِّ ما يُعوزُنِي مِنَ الضَّرورِيَّاتِ .  
 وَقَدَّ اسْتَطَعْتُ أَن أَصنَعَ كَثيرًا مِنَ الأثاثِ ، دُونَ أَن اسْتَعينَ

(١) الماهر . (٢) عطر .



عَلَى ذَلِكَ بغيرِ قَدُومٍ وَمِسْحَجٍ<sup>(١)</sup> . فَإِذَا عَنَّ لِي أَنْ أَصْنَعَ لَوْحًا ، قَطَعْتُ  
الشَّجَرَةَ بِالْقَدُومِ ، وَطَرَحْتُ جَذْعَهَا عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ هَدَبْتُهُ مِنْ  
جَانِبَيْهِ حَتَّى يَصِلَ سَمْكُهُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي أُرِيدُ . فَإِذَا تَمَّ لِي ذَلِكَ صَقَلْتُهُ<sup>(٢)</sup>  
بِمِسْحَجِي .

وكانَ الْقَدُومُ وَالْمِسْحَجُ خَيْرَ مِعْوَانٍ<sup>(٣)</sup> لِي عَلَى إِنْجَازِ كَثِيرٍ مِنْ أَمَانِ  
الْبَيْتِ . وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْمِي أَنْ أَصْنَعَ أَكْثَرَ مِنْ لَوْحٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ  
شَجَرَةٍ كَامِلَةٍ . عَلَى أَنِّي لَجَأْتُ إِلَى الصَّبْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي مَنُذُوحَةٌ<sup>(٤)</sup>  
عَنْهُ . وَقَدْ بَدَأْتُ بِعَمَلِ كُرْمِي وَمَائِدَةٍ ، ثُمَّ صَنَعْتُ أَلْوَحًا كَثِيرَةً ،  
ثُمَّ ثَبَّتُ فِي الصَّخْرِ مَسَامِيرَ لَوْلِيَّةٍ<sup>(٥)</sup> ، لِأَعْلَقَ عَلَيْهَا بِنَادِي وَثِيَابِي .  
وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي إِنْجَازِ كُلِّ مَا أحتاجُ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ .

### ٥ - شَحْمُ الْجِلْدِ

وكانَ يُعَوِّزُنِي - وَمَا أَكْثَرَ مَا كانَ يُعَوِّزُنِي حِينَئِذٍ - السَّمْعُ .  
وكانَ فَقْدَانُهُ يَضْطَرُّنِي إِلَى مُلَازِمَةِ فِرَاشِي كُلَّمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ .

(١) آلة يصقل بها الخشب . (٢) أنجمته . (٣) مساعد .  
(٤) بد وسعة . (٥) ملوأة .

وَقَدْ فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ طَوِيلًا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَى حَلِّ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ ؛  
فَحَرَصْتُ عَلَى شَحْمِ الْجِدَاءِ الَّتِي كُنْتُ أَذْبَحُهَا ، ثُمَّ جَفَفْتُهَا فِي أَشِعَّةِ الشَّمْسِ .  
وَوَضَعْتُ فِي وَسْطِ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الشَّحْمِ قَيْلًا أُخْرَجَتْهُ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي  
عِنْدِي ؛ حَتَّى إِذَا تَمَّ صُنْعُ الشَّمْعِ خَفِرْتُ بِالضَّوِّ كَيْلًا ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ  
أَقْضِي لَيْالِي فِي ظِلَامٍ حَالِكٍ .

#### ٦ - سَنَابِلُ الشَّعِيرِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كُنْتُ دَائِبًا<sup>(١)</sup> عَلَى الْعَمَلِ ؛ فَاسْتَرْعَى أَنْتِبَاهِي كَيْسٌ  
الْحُبُوبِ الَّذِي أَخْضَرْتُهُ مَعِيَ مِنَ السَّفِينَةِ الْمُحَطَّمَةِ ، فَرَأَيْتُ الْقَارَةَ قَدْ  
الْتَهَمَتْهُ حَتَّى لَمْ تَكَدْ تُبْقِي مِنْهُ إِلَّا الْقُشُورَ . فَأَفْرَغْتُ الْكَيْسَ مِنْهَا عِنْدَ  
سَفْحِ الصَّخْرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ كَهْفِي ، لِأَتَنْفَعَ بِالْكَيْسِ فِي قَضَاءِ مَآرِبِ<sup>(٢)</sup>  
أُخَرَ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ ، هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ ، وَرَوَّتِ الْأَرْضَ ، ثُمَّ نَسِيتُ كُلَّ  
مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَمَا رَأَيْتُ عَلَى شَهْرٍ وَاحِدٍ تَقْرِيْبًا حَتَّى أَدْهَشَنِي مَا رَأَيْتُهُ - عِنْدَ سَفْحِ  
الصَّخْرَةِ - مِنْ السُّوقِ النَّامِيَةِ فِي الْأَرْضِ .

(١) مجتهداً . (٢) إنجاز حاجات .



وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُهَا - أَوَّلَ الْأَمْرِ - نَبَاتٍ  
مَجْهُولَةً . ثُمَّ ظَهَرَ لِي خَطَأُ هَذَا الظَّنِّ - بَعْدَ  
زَمَنٍ قَلِيلٍ - حِينَ رَأَيْتُ أَنتَتِي عَشْرَةَ  
سُنْبُلَةً مِنَ الشَّعِيرِ الْأَخْضَرِ .

وَقَدْ أَشْتَدَّتْ دَهْشَتِي - حِينَئِذٍ -  
وَلَمْ أَقْصُرْ فِي تَعَاهِدِهَا بِالْعِنَايَةِ ،  
وَحَصَدِهَا فِي مَوْسِمِ الْحَصَادِ ،  
وَهُوَ آخِرُ شَهْرِ « يُنَيْسَةَ » .  
وَقَدْ جَنَيْتُهَا بِعِنَايَةٍ نَادِرَةٍ ؛

فَلَمْ أَهْمِلْ مِنْهَا حَبَّةً وَاحِدَةً ، ثُمَّ بَدَرْتُهَا - بَعْدَ ذَلِكَ - فِي مَوْسِمِ  
الْبَدْرِ . وَوَلَّاحَ لِي أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى الخُبْزِ بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ .  
وَمَا مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ حَتَّى أَصْبِحَ عِنْدِي - مِنَ الشَّعِيرِ -  
مَا يَكْفِي لِعِذَائِي وَزَرْعِ حَقْلِي الْجَدِيدِ .

## ٧ - زلزالُ الجزيرةِ

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ الْيَوْمَ السَّابِعَ مِنْ « أُبْرَيْلَ » عَامَ سِتِّينَ  
وَسِتِّمِائَةَ وَأَلْفٍ : فَقَدْ كَانَ يَوْمًا هَائِلَ النَّبَاِ ، مُرَوِّعَ الْخَبْرِ ، وَقَدْ  
أَيَقَنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ آخِرَتِي دَنْتُ ، وَأَنَّ مَصْرِعِي وَشِيكَ<sup>(١)</sup> .  
وَرَأَيْتُ كُلَّ مَا أْتَمَّتْهُ - مِنْ عَمَلٍ - يَكَادُ يَنْهَارُ<sup>(٢)</sup> أُمَامِي فِي  
لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْهُمْ سَكَا<sup>(٣)</sup> فِي أَعْمَالِي ، دَاخِلَ خَيْمَتِي . وَإِنِّي  
لَكَذَلِكَ إِذْ وَجَدْتُ الْأَرْضَ تَهْبِطُ وَتَضَعُدُ . وَشَعَرْتُ بِاضْطِرَابِ  
الصُّخُورِ الَّتِي تَكْتَفِنِي<sup>(٤)</sup> ، وَسَمِعْتُ فَرْقَمَةً وَجَلْجَلَةً شَدِيدَتَيْنِ ،  
وَلَمْ أَعْرِفْ مَعْدَرَ هَذِهِ الْكَوَارِثِ . وَتَمَلَّكِنِي الدُّعْرُ ، وَخَشَيْتُ  
أَنْ أُدْفَنَ حَيًّا ؛ فَصَعِدْتُ السُّلَمَ ، وَخَرَجْتُ مِنْ خَيْمَتِي مُسْرِعًا ، وَأَنَا  
لَا أَكَادُ أَصَدِّقُ بِالنَّجَاةِ ؛ فَرَأَيْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ تَهْتَزُّ اهْتِزَازًا عَنِيفًا ،  
فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الزُّلْزَالُ .

(١) هلاكى سرع إلى . (٢) يسقط . (٣) جادا . (٤) سحيط بى .

وَقَدْ اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَعَابِقَةً<sup>(١)</sup> ، وَكَانَ  
بَيْنَ كُلِّ مَرَّةٍ مِنْهَا ثَمَانِي دَقَائِقَ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْهَزَاتُ قَوِيَّةً عَنيفَةً إِلَى حَدِّ أَنْ هَوَتْ إِحْدَى  
الصُّخُورِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي ، وَلَمْ أَكُنْ أَبْعُدُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ مِثْرٍ وَنِصْفِ  
مِثْرٍ ، وَسَمِعْتُ لِسُقُوطِهَا صَوْتًا هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالرُّعْدِ . وَثَمَّةٌ<sup>(٢)</sup> عَقَدَ  
الْخَوْفُ لِسَانِي ، وَكَادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي ، مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ .

وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ الْأَرْضَ هَدَأَتْ ، وَسَكَنَ اضْطِرَابُهَا  
بَعْدَ تِلْكَ الْهَزَاتِ الثَّلَاثِ . فَاطْمَأَنْتُ نَفْسِي قَلِيلًا ، وَبَلِكْتَنِي لَمْ  
أَجْرُؤْ عَلَى دُخُولِ خَيْمَتِي ؛ فَجَلَسْتُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ  
كَيْفَ أَصْنَعُ .

#### ٨ - بَعْدَ الزَّلْزَالِ

وَأَكْفَهَرَّتِ السَّمَاءُ<sup>(٣)</sup> ، وَتَلَبَّدَتْ فَجَاءَةً بِالْغَيْومِ الْقَائِمَةِ . وَهَبَّتِ  
الرِّيحُ عَاصِفَةً هَوَّجَاءً ؛ وَاضْطَنَبَ الْبَحْرُ ، وَأُضْطَفَقَتْ أَمْوَاجُهُ أُضْطِفَاقًا

(٣) اسودت .

(٢) هناك

(١) متوالية .

شَدِيدًا ، وَكَانَتْ تَصِلُ فِي ارْتِفَاعِهَا إِلَى مِثْلِ ارْتِفَاعِ الْجِبَالِ . وَظَلَّتِ  
 الْعَاصِفَةُ نَائِرَةً مُفْرَعَةً ثَلَاثَ سَاعَاتٍ ، ثُمَّ أَعْقَبَهَا الشُّكُونُ ، وَهَطَلَتْ  
 الْأَمْطَارُ الْغَزِيرَةُ ؛ فَحَسِبْتُهَا سَيُولَا تَهْمِي مِنَ السُّحُبِ الْمُتَكَاثِفَةِ .  
 وَظَلَّتِ السَّمَاءُ تُمَطِّرُنَا طُولَ اللَّيْلِ وَطَرَفًا مِنْ نَهَارِ الْيَوْمِ التَّالِي . وَكَانَ  
 شُغْلِي الشَّاغِلُ - حِينَئِذٍ - التَّفَكِيرَ فِي تَغْيِيرِ هَذَا الْمَنْزِلِ ، بَعْدَ حُدُوثِ  
 الزَّلْزَالِ . فَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِي أَنْ أَطْمَئِنُّ إِلَى الْبَقَاءِ ، بَعْدَ أَنْ كِدْتُ  
 أَذُقُّ فِيهِ حَيًّا . وَقُلْتُ لِنَفْسِي : « مَا دَامَتِ الْجَزِيرَةُ عُرْضَةً لِأَخْطَارِ  
 الزَّلْزَالِ ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ <sup>(١)</sup> أَنْ أَتَّخِذَ هَذِهِ الْمَغَارَةَ مَسْكِنًا لِي ،  
 وَمَا أَجْدُرَنِي أَنْ أَتَّخِذَ مَكَانًا صَالِحًا فِي الْعَرَاءِ <sup>(٢)</sup> ، لِأَبْنِي فِيهِ مَسْكِنِي ،  
 بَعْدَ أَنْ أُسَوِّرَهُ بِسِيَاجِ أَمِينٍ <sup>(٣)</sup> . »

وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمُعَادَرَةِ هَذَا الْكَهْفِ الَّذِي لَمْ آلُ جُهْدًا <sup>(٤)</sup> فِي حَفْرِهِ  
 وَإِصْلَاحِهِ وَتَنْظِيمِ أُمَّتِي فِيهِ ، حَتَّى أَصْبَحَ يَبْتَأُ وَحِصْنًا مَنِيعًا <sup>(٥)</sup> يَقِينِي  
 غَارَاتِ الْأَعْدَاءِ .

(١) الحكمة . (٢) الفناء . (٣) سور صين . (٤) لا أبني قوه إلا بدلها  
 (٥) قويا .

## ٩ - أثرُ الزَّلْزَالِ

وَفِي صَبَاحِ أَوَّلِ « مَائُو » وَقَفْتُ أَتَأَمَّلُ الْبَحْرَ، وَأَجِيلُ لِحَاطِي فِي  
 أَرْجَائِهِ<sup>(١)</sup>. فَرَأَيْتُ بَقَايَا مُتَنَائِرَةً مِنْ حُطَامِ السَّفِينَةِ وَمِنْ أَلْوَاحِهَا، قَذَفَهَا  
 أَلْمَدُّ إِلَى الشَّاطِئِ. فَصَبَّرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى يَنْحَسِرَ<sup>(٢)</sup> عَنْهَا الْمَاءُ، وَقَتَ  
 الْجَزْرِ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ دَهَشْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مِمَّا رَأَيْتُ. وَعَمِلْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ أَثَرِ  
 الزَّلْزَالِ الَّذِي حَطَّمَ السَّفِينَةَ تَحْطِيمًا، ثُمَّ قَذَفَتْ الْأَمْوَاجُ بِالْوَاكِحِ إِلَى  
 الشَّاطِئِ. وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا بِانْتِهَازِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ قَبْلَ أَنْ أَشْغَلَ نَفْسِي  
 بِنَاءِ الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ. وَعَمِلْتُ عَلَى تَجْزِئَةِ مَا بَقِيَ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى  
 قِطْعٍ، وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حَاجَتِي إِلَى هَذِهِ الْبَقَايَا الْمُحْطَمَةِ. وَقَدْ وَاصَلْتُ  
 الْعَمَلَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْعَزْمِ حَتَّى مُتَّصِفَ شَهْرٍ « يُنِيَّةَ »، وَظَفِرْتُ  
 بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْوَاكِحِ، كَمَا ظَفِرْتُ بِأَكْثَرِ مِنْ مِائَتَيْ رِطْلٍ مِنَ  
 الْحَدِيدِ. وَهَكَذَا أَصْبَحَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أُبْنِيَ لِي زَوْرَقًا كَامِلًا  
 الْمِمْدَاتِ. وَصَنَعْتُ - بَعْدَ ذَلِكَ - شَبَكَةً أَصْطَادُ بِهَا السَّمَكَ.  
 وَكُنْتُ أُجَفِّفُ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَتِي مِنْهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا، ثُمَّ  
 آكُلُهُ فِي أَوْقَاتِ أُخْرَى.

(١) أدير بصرى في أنحائه . (٢) يرند . (٣) ارتداد الماء .

## ١٠ - يَنَ بَرَانِ الْعُمَى

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » رَأَيْتُ سُلْحَفَةً  
كَبِيرَةً تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ سُلْحَفَاتِ أَرَاهَا فِي الْجَزِيرَةِ -  
عَلَى أَنَّي رَأَيْتُ - فِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ - أُسْرَابًا<sup>(١)</sup> كَثِيرَةً مِنْ  
السَّلَاحِفِ فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنْهَا .

وَذَبَحْتُ تِلْكَ السَّلْحَفَةَ ؛ فَرَأَيْتُ فِيهَا سَتِينَ بَيْضَةً . وَكَانَ لِحُمُهَا  
- جِينْدٌ - شَهِيًّا لَدَيْدًا ؛ حَتَّى حُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَشْهَى طَعَامٍ تَذَوَّقْتُهُ  
فِي حَيَاتِي .

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ  
غَزِيرَةً ، وَبَرَدَ الْجَوْثُ فَجَاءَ ، فَأَصَابَتْنِي الْحُمَى عَشْرَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ . وَكَانَتْ  
حَرَارَتِي تَخْتَلِفُ بَيْنَ ارْتِفَاعٍ وَأَنْخِفَاضٍ ، وَقَدْ أُشْتَدَّ بِي الظَّنُّ ،  
وَأُعْجَزَنِي الضَّعْفُ عَنِ السَّيْرِ إِلَى مَكَانِ الْمَاءِ لِأَرْوِي ظَمِّي .

وَمَا تَمَأَثَلْتُ<sup>(٢)</sup> ، حَتَّى أُنْصَرَفَ هَمِّي إِلَى مَلءِ زُجَاجَةٍ كَبِيرَةٍ مَاءً ،  
وَوَضَعْتُهَا عَلَى الْمَائِدَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سِرِّي .

(١) جماعات . (٢) دبت من الشفاء .



ولقد نهكت الحمى قواي<sup>(١)</sup> ؛ فبقيت عشرة أيامٍ أخرى وأنا  
 عاجزٌ عن أداء أى عملٍ . فقضيتُ دورَ النَّقْهِ<sup>(٢)</sup> في راحةٍ تامةٍ ،  
 تتخللها نزهاتٌ قصيرةٌ ، حتى استرددتُ صحتي كاملةً في اليومِ  
 الخامسِ عشرَ من « ميلية » .

### ١١ - إزتيادُ الجزيرةِ

ورأيتُني جديرًا أن أرتادَ الجزيرةَ ، وأتعرَّفَ كلَّ ما فيها .  
 فذهبتُ إلى الخليجِ الصَّغيرِ - وهو أولُ مكانٍ حالتهُ في هذه  
 الجزيرةِ - وسيرتُ على شاطئِ الغديرِ الذي يصبُّ فيه ، وقطعتُ  
 نحوَ ميلينِ في أرضٍ مرْتَفَعَةٍ . وقد أُعْجِبْتُ بِالْمَرْجِ الأخضرِ الجميلةِ  
 المُنبَسِطَةِ الَّتِي يَخْتَرِقُهَا الغديرُ . ورأيتُ في المَرْجِ المرْتَفَعَةِ كثيرًا  
 من التَّبَعِ الأخضرِ نايماً على سوقِ مرْتَفَعَةٍ ، كما رأيتُ عيدانَ قصبِ  
 الشُّكْرِ على غيرِ ما يُرامُ ، فقد أُهْمِلَتْ ولم يتعمَّدها أحدٌ بعينائِهِ .  
 وفي اليومِ التَّالِي - أي في السَّادِسِ عشرَ من ذلكَ الشهرِ -

(١) أصغفها . (٢) مدة استكمال الصحة .

سِرْتُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي قَطَعْتُهَا بِالْأَمْسِ ، وَتَوَغَّلْتُ<sup>(١)</sup> فِي الْمُرُوجِ . فَرَأَيْتُ  
 وَرَاءَهَا كَثِيرًا مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ وَغَيْرِهَا ، وَرَأَيْتُ - مِنْ السَّمَامِ  
 وَالْعِنَبِ النَّاصِجِ الشَّهِيِّ - مَا أَذْهَشَنِي وَأَفْعَمَ قَلْبِي سُرُورًا . فَأَكَلْتُ  
 مِنَ الْفَاكِهَةِ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ حَتَّى لَا تُسَلِّمَنِي الثُّخَمَةُ إِلَى الْمَرَضِ .  
 ثُمَّ عَنَّ لِي أَنْ أُجَفِّفَ الْعِنَبَ حَتَّى يُصْبِحَ زَيْبًا . وَمَضَى النَّهَارُ كُلُّهُ  
 وَأَنَا جَادٌّ فِي هَذَا الْعَمَلِ . وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَعُودَ إِلَى مَسْكَنِي قَبْلَ أَنْ  
 يُقْبَلَ اللَّيْلُ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ<sup>(٢)</sup> فَتَحَيَّرْتُ لِنَوْمِي شَجَرَةً كَثِيفَةً الْأَغْصَانِ ،  
 وَنِمْتُ بَيْنَ أَغْصَانِهَا ، كَمَا نِمْتُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ حَلَّتْ فِيهَا هَذِهِ الْجَزِيرَةُ .  
 وَمَا زِلْتُ نَائِمًا قَرِيرَ الْمَيِّنِ<sup>(٣)</sup> هَادِيَّ الْبَالِ حَتَّى أَقْبَلَ الصَّبَاحُ . فَاسْتَيْقَظْتُ ،  
 ثُمَّ وَاصَلْتُ السَّيْرَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ ، حَتَّى بَلَغْتُ غَابَةَ زُرْدَهْرَةَ ،  
 تَلُوحٌ لِعَيْنِي مَنْ يَرَاهَا مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهَا حَدِيقَةٌ .

وَقَدْ اسْتَرْعَى بَصْرِي مَا رَأَيْتُهُ مِنْ شَجَرِ الْبُرْتَقَالِ وَاللَّيْمُونِ وَمَا إِلَى  
 ذَلِكَ مِنَ الْفَاكِهَةِ النَّاصِجَةِ الشَّهِيَّةِ .

وَرَأَيْتُ مِنْ أَصَالَةِ الرَّأْيِ<sup>(٤)</sup> أَنْ أُعِدَّ مِنْ هَذِهِ الْخَيْرَاتِ الْعَمِيَّةِ

(١) قَطَعْتُ سَاقًا بَعِيدَةً . (٢) بَعْدَ الْمَسَاقَةِ . (٣) سُرُورًا (٤) جِدْوَةً

زَادَا أُخْتَرَتْهُ لِفَصْلِ الشِّتَاءِ الْقَرِيبِ . فَجَنَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعِنَبِ ،  
وَعَلَّقْتُهُ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرِ ، لِيَجِفَّ فِي الشَّمْسِ . وَأَخَذْتُ مِنَ الْبُرْتَقَالِ  
بِمِقْدَارِ مَا اسْتَطِيعُ حَمَلَهُ . وَسِرْتُ فِي طَرِيقِي عَائِدًا إِلَى مَسْكَنِي ،  
وَأَنَا شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِجَمَالِ هَذَا الْوَادِي الْخَصِيبِ ، وَأَعْتَدَالِ جَوْهِ ،  
وَحُسْنِ مَوْقِعِهِ الْأَمِينِ . وَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَكَانَ - الَّذِي تَخَيَّرْتُهُ  
لِسُكْنَائِي - هُوَ أَرْدَأُ بُقْعَةٍ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ . وَلَكِنِّي لَمْ أَشَأْ أَنْ  
أَبْرَحَ الْمَكَانَ ، لِقُرْبِهِ مِنَ الْبَحْرِ . وَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَمُرَّ بِي  
سَفِينَةٌ ، أَوْ يَفِدَّ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَيُنْقِذَنِي مِنْ تِلْكَ الْمُرَلَّةِ .

عَلَى أَنِّي - لِشِدَّةِ إِعْجَابِي بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ الْحَبِيلَةِ - لَمْ أَشَأْ أَنْ  
أَبْتَعِدَ عَنْهَا . فَأَنْشَأْتُ فِيهَا عُمَّا آوَى إِلَيْهِ وَسَطَ فَنَاءٍ<sup>(١)</sup> مُحَاطٍ بِسِيَاجٍ<sup>(٢)</sup>  
طَبِيعِيٍّ مُزْدَوِجٍ مِنَ الْأَشْجَارِ . وَكُنْتُ أَمْضِي فِي هَذَا الْحِصْنِ لَيْلَتَيْنِ  
أَوْ ثَلَاثًا مُتَوَالِيَةً . وَقَدْ صَنَعْتُ سُلْمًا شَبِيهَا بِالسُّلْمِ الَّذِي صَنَعْتُهُ فِي  
الْمَنْزِلِ الْأَوَّلِ . وَهَكَذَا أَصْبَحَ لِي مَنَزَلَانِ مُتَبَاعِدَانِ ، آوَى إِلَيْهِمَا فِي  
أَيِّ وَقْتٍ أَشَاءُ . وَظَلِمْتُ كَذَلِكَ إِلَى أَوَّلِ شَهْرِ « أَغْسُطُسَ » .

(١) مكان فضاء واسع . (٢) سور .



## ١٢ - فصلُ الأَمطارِ

وَفِي اليَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ «أَغُسْطُسَ» بَدَأَ المَطَرُ يَنْهَمِرُ  
بَشِدَّةٍ إِلَى أَنْ حَلَّ مُتَّصِفٌ «أَكْتُوبَرًا»، فَبَدَأَتْ تَخِفُّ وَطَاءَةُ المَطَرِ .

وَكُنْتُ - لِحُسْنِ حَظِّي - قَدْ تَقَلَّتْ إِلَى مَسْكَنِي الْأَوَّلِ كُلَّ  
 مَا جَفَّفْتُهُ مِنَ الْعَيْبِ قُبَيْلَ حُلُولِ فَصْلِ الْأَمْطَارِ . فَلَمَّا اشْتَدَّ انْهِمَارُ  
 الْمَطْرِ وَتَمَدَّرَ عَلَيَّ الْخُرُوجُ ، وَجَدْتُ مَا يَكْفِينِي مِنَ الزَّادِ . وَكَانَ  
 الْمَطْرُ يَضْطَرُّنِي فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، إِلَى الْإِنْزِوَاءِ فِي مَغَارَتِي عِدَّةَ أَيَّامٍ .  
 وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَعَرْتُ أَنَّ زَادِي يُوشِكُ أَنْ يَنْتَهِيَ ؛ فَاضْطَرَرْتُ إِلَى  
 الْخُرُوجِ مِنْ بَيْتِي مَرَّتَيْنِ . وَقَدْ اضْطَدْتُ جَدِيًا وَسَلْحَفَاةً كَبِيرَةً ،  
 وَكَانَ لِحَمَّهْمَا شَهِيًّا .

وَكَانَ فَطُورِي عُنُقُودًا مِنَ الْعَيْبِ ، وَغَدَائِي شِوَاءَةً مِنْ جَدِي أَوْ  
 سُلْحَفَاةً ، وَعَسَائِي يَبْضَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا  
 وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلَاثِينَ مِنَ « سِبْتَمْبَرِ » ، اثْنَا بَتْنِي ذِكْرِيَاتٍ  
 مُؤَلِّمَةً . وَقَدْ سَاوَرْتَنِي <sup>(١)</sup> حِينَ مَرَّ بِخَاطِرِي أَنَّي حَلَلْتُ هُدِيَّ  
 الْجَزِيرَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الْعَامِ الْمَاضِي ، وَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ عَامٌ  
 بِأَكْمَلِهِ فِي هَذَا الْمَنْفَى . وَلَقَدْ كُنْتُ شَدِيدَ الْيَقَظَةِ فِي مُرَاقَبَةِ الْفُصُولِ  
 وَحُسْبَانِ أَيَّامِ السَّنَةِ ؛ حَتَّى لَا أَفْجَأًا بِالْأَمْطَارِ . وَقَدْ أَكْسَبْتَنِي الْمِرَانَةَ  
 خَيْرَةً نَادِرَةً بِالزَّرَاعَةِ ، وَنَجَّحْتَ أَعْمَالِي نَجَاحًا بَاهِرًا .

(١) خطرت لي .

## ١٣ - الببغاء والجدى

وَكُنْتُ دَائِبًا عَلَى الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ . وَلَمْ أَقْصِرْ فِي تَوْفِيرِ الزَّادِ<sup>(١)</sup>  
عِنْدِي قَبْلَ حُلُولِ الْأَمْطَارِ ؛ حَتَّى لَا يُزْعِجَنِي نَقْصُ الزَّادِ إِذَا حَبَسَنِي  
الْمَطَرُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ .

وَرَأَيْتُنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى سِلَالٍ أَضْعُ فِيهَا أَلْفَاكِمَةَ وَالطَّعَامَ . وَقَدْ  
وَقَّعْتُ إِلَى صُنْعِهَا بَمَدِّ عَنَاءٍ طَوِيلٍ . وَكُنْتُ أَكْثَرُ مِنَ التَّجْوَالِ فِي  
تِلْكَ الْجَزِيرَةِ . وَقَدْ أُسْتَرْعَى بِصَرِي - ذَاتَ يَوْمٍ - أَرْضٌ فَسِيحَةٌ ،  
وَكَانَ الْيَوْمُ صَحْوًا . وَقَدْ رَأَيْتُهَا مَرَّةً تَفَعَّةً ، تَمْتَدُّ مِنَ الْقَرْبِ إِلَى الْجَنُوبِ  
الْعَرَبِيِّ . وَهِيَ تَبْعُدُ عَنِ جَزِيرَتِي نَحْوَ خَمْسَةِ عَشَرَ مِيلًا ، وَلَمْ أَكُنْ  
أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْهَا . وَقَدْ هَدَانِي التَّفَكِيرُ الطَّوِيلُ إِلَى أَنْ هُدِيَ الْأَرْضَ  
الْبَعِيدَةَ تَمْتَدُّ إِلَى بِلَادِ الْبَرَاذِيلِ . وَشَهِدْتُ - فِي أَثْنَاءِ تَجْوَالِي فِي تِلْكَ  
السُّهُولِ الْخُضْرِ الْمَزْدَهْرَةِ الْجَمِيلَةِ ، ذَاتِ الْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ<sup>(٢)</sup>  
الْكثِيفَةِ<sup>(٣)</sup> - جَمَهْرَةً مِنَ الْبَبْغَاوَاتِ .

وَقَدْ وَقَّعْتُ إِلَى اقْتِنَاصِ بَبْغَاءِ صَغِيرَةٍ ، ضَرَبْتُهَا بِمَصَايَ ، ثُمَّ

(١) حسه . (٢) المرتفعة . (٣) الغليظة .

أَدْفَأْتُهَا بَيْنَ ثِيَابِي، حَتَّى عَادَتْ إِلَى صَوَابِهَا . وَعُدْتُ بِهَا إِلَى مَسْكَنِي ،  
فَرَأَيْتُ كَلْبِي قَدْ أَصْطَادَ جَدِيًا صَغِيرًا ؛ فَاسْرَعْتُ لِإِتْقَاذِ الْجَدْيِ مِنْ  
بَيْنِ مَخَالِبِهِ .

وَقَدْ عُنَيْتُ بِتَرْبِيَةِ الْبَيْغَاءِ  
وَالْجَدْيِ وَتَأْنِيسِهِمَا<sup>(١)</sup> . فَرَبَطْتُ  
الْجَدْيَ إِلَى وَتْدٍ ، وَصَنَعْتُ لِلْبَيْغَاءِ  
قَفَصًا . وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِمَا زَمَنٌ  
قَلِيلٌ ، حَتَّى أُنْسَا بِي وَأُرْتَاحَا  
إِلَى صُحْبَتِي . وَكَانَ الْجَدْيُ  
يَتَّبَعُنِي حَيْثُمَا سِرْتُ ، وَلَا يَكَادُ  
يُطِيقُ فِرَاقِي .



وَهَكَذَا سَعِدْتُ - فِي

هَذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ - بِصُحْبَةِ هَذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ ، كَمَا سَعِدْتُ  
بِصُحْبَةِ كَلْبِي وَقَطَّتِي مِنْ قَبْلُ .

( ١ ) جعلتهما بألسان بني ولا يهربان مني .

## زمن العزلة

### ١ - أعداء الزراعة

حَلَّ الْيَوْمُ الْمُتَمُّ لِلثَّلَاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبَر » ، وَهُوَ الذُّكْرَى الثَّانِيَةُ  
لِلْيَوْمِ الْمَشْتُومِ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الْمُوحِشَةَ النَّائِيَةَ ، حَيْثُ  
كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَتْرِكَ الْعَالَمَ وَأَسْتَسَلِمَ لِلْعُزْلَةِ . عَلَيَّ أَنْبِي وَجَدْتُ فِي الْعَمَلِ  
رَاحَةً عَظِيمَةً ، وَظَفِرْتُ - بِجِدِّي وَدُعْوِي وَمُثَابَرَتِي <sup>(١)</sup> - بِنَتَائِجِ بَاهِرَةٍ .  
فَجَنَيْتُ فِي آخِرِ الْخَرِيفِ مَخْضُولًا وَافِرًا مِنَ الْجُبُوبِ . وَلَكِنْ فَرَحِي  
بِهِ لَمْ يَدُمَ طَوِيلًا ؛ فَقَدْ نَمَّصَهُ عَلَيَّ عَبَثُ الْجِدَاءِ بِهِ . وَكُنْتُ أَرَى بَعْضَ  
حَيَوَانَ الْجَزِيرَةِ - وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَرْزَبِ الْجَبَلِيِّ يَعِيثُ بِزَرْعِي  
فَسَادًا . وَقَدْ أَسْتَمَرَّ <sup>(٢)</sup> الْقَمَحَ - وَهُوَ عَلَيَّ سُوْقِهِ - وَأَغْرَثَهُ لَذَّتُهُ  
بِإِفْسَادِ مَا زَرَعْتُهُ مِنْهُ . فَلَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ تَسْوِيرِ الْحَقْلِ بِسِيَّاحٍ مِنْ

(١) صبري ومواظبتي . (٢) استطاب .



الأعشاب المرتفعة . وقد جهدني ذلك ثلاثة أسابيع . ولم آلُ  
 جهداً في مطاردة هذه الأعداء الخبيثة نهاراً ، فإذا جاء الليلُ ربطتُ  
 الكلبَ إلى حبلٍ طويلٍ مثبتٍ في بابِ الحقلِ ، فلا يفتأُ ينبعُ طولَ  
 الليلِ حتى يُزعجها ؛ فلم تلبثُ أن هجرتِ البُقعةَ التي كنتُ فيها ،  
 ولم تمددْ تدنؤِ منها بعد ذلك . واسترحتُ من عبثِ هذه الأعداء<sup>(١)</sup> ،  
 حتى حانَ وقتُ الحصادِ . فظهرَ لي أعداءُ جددُ ؛ إذ أقبلتِ الطيورُ على  
 سنابلِ الشعيرِ تلتهمها ، وأستمرأتُ هذا الطعامَ الشهي . على أنني لم  
 أيتسُ من النجاجِ في مطاردتها ، فظلمتُ أخرسُ حقلِي ليلَ نهارَ ،  
 وأصطادُ يندُقِيّ كُلَّ طائرٍ يدنو من حقلِي ؛ حتى ذعرتِ الطيورُ  
 وتملكها الرعبُ ، فهجرتِ الحقلَ وما يكتنفه<sup>(٢)</sup> ، ولم تجرؤْ على الدنو  
 من هذه البُقعة . وهكذا تمَّ لي الظفرُ ، وأرتاحَ بالي ، ونضجَ الزرعُ  
 في الأيامِ الأخيرةِ من « ديسمبر »

## ٢ - أدواتُ الزارعِ

وقد أشدَّتْ خيرتي وأرتياكي حينَ هممتُ بجني هذا المحصولِ

(١) ما فعلته من الأذية . (٢) ما يحيط به .

وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ الْأَدَوَاتِ مَا يُسَاعِدُنِي عَلَى ذَلِكَ . وَعَنِّي لِي أَنْ أُصْنَعَ  
مِنْجَلًا ، وَهُوَ آلَةٌ مِنَ الْحَدِيدِ مُنْحَنِيَّةٌ يُقَطَّعُ بِهَا الزَّرْعُ .

فَصَنَعْتُهُ مِنْ سَيْفٍ وَعُضْنِ شَجَرَةٍ . وَقَطَعْتُ السَّنَابِلَ ، ثُمَّ فَرَكَتُهَا  
بِيَدَيَّ ، وَعَزَمْتُ عَلَى بَذْرِهَا جَيِّمًا فِي الْمَوْسِمِ الْقَابِلِ . وَهَذَا تَمَثَّلَ لِي

مِقْدَارُ مَا يُعَانِيهِ الْإِنْسَانُ

إِذَا حَاوَلَ — بِمُفْرَدِهِ —

أَنْ يَظْفَرَ بِرَغِيفٍ وَاحِدٍ

مِنَ الْخُبْزِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ

فِي حَاجَةٍ إِلَى مِخْرَاطٍ

وَقَاسٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ

أَدَوَاتِ الزَّرَاعَةِ . فَإِذَا تَمَّ

الْحَصَادُ أَشَدَّتْ حَاجَتِي

إِلَى طَاحُونَةٍ وَمُنْحَلٍ وَفُرْنٍ

وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمِلْحِ وَغَيْرِهِ . وَلَكِنَّ الْحَدَّ وَالْمُشَابِرَةَ كَفِيلَانَ بِالتَّغْلِبِ

عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ . وَقَدْ تَمَّ لِي كُلُّ مَا أَرَدْتُ بِفَضْلِ الْمَرْيَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ ،



لِأَنِّي كُنْتُ لَا أُضِيعُ وَقْتِي عَبَثًا . فَإِذَا هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ لَرِمْتُ يَتِّي ،  
وَأَقْبَلْتُ عَلَى يَبْنَعَائِي أَعْلَمُهَا النُّطْقَ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى نَتَائِجِ بَاهِرَةٍ .

### ٣ - صِنَاعَةُ الْفَخَّارِ

وَلَمَّا كَانَتْ الْحَاجَةُ تَفْتَقُ الْحِيلَةَ<sup>(١)</sup> ، اصْطَرَّرتُ إِلَى مُرَاوَلَةِ صِنَاعَةِ  
الْفَخَّارِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِهَا عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ . وَقَدْ نَجَّحْتُ فِي ذَلِكَ - بَعْدَ  
مِرَانَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَتَجَارِبَ كَثِيرَةٍ - فَصَنَعْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجِرَارِ<sup>(٢)</sup>  
وَالْأَوَانِي وَالْقِصَاعِ<sup>(٣)</sup> وَالصِّحَافِ<sup>(٤)</sup> . وَمَا زِلْتُ أُرْتَبِقُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ  
حَتَّى بَلَغْتُ حَدًّا تَجْدِيرًا بِالتَّهْنِئَةِ .

### ٤ - الرُّورِقُ الْكَبِيرُ

عَلَى أَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ الْكَثِيرَةَ الْمُرْهِقَةَ لَمْ تُنْسِنِي رَغْبَتِي الشَّدِيدَةَ  
فِي أُرْتِيَادِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي رَأَيْتُهَا - مِنْ قَبْلُ - تُجَاهَ الْجَزِيرَةِ .  
فَقَدْ كُنْتُ أَمَلُّ أَنْ أَجِدَ فِيهَا وَسِيلَةً لِلْمَوَدَّةِ إِلَى « لَنْدَن » .

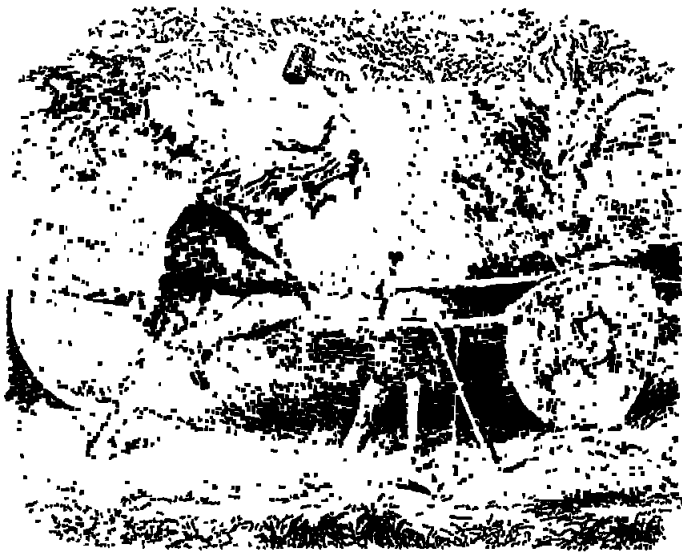
(١) الضرورة تفتق على ابتكار الحيلة

(٢) مع جرة

(٣) مع قصعة

(٤) جمع صحفة . وهي الطبق .

وَذَكَرْتُ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ الَّتِي انْقَلَبَ بِرِفَاقِي ، فَرَأَيْتُهُ لَا يَرَالُ  
 كَمَا هُوَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الشَّاطِئِ مَقْلُوبًا ، وَقَدْ غَاصَ جُزْءٌ مِنْهُ فِي رِمَالِ  
 الشَّاطِئِ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَرْفَعَهُ مِنْ مَكَانِهِ ، فَذَهَبَتْ كُلُّ جُهُودِي عَبَثًا .



فَأَقْبَلْتُ عَلَى  
 جُذُوعِ الْأَشْجَارِ ،  
 وَبَدَلْتُ كُلَّ مَا فِي  
 وَسْعِي زَمَنًا طَوِيلًا ،  
 حَتَّى صَنَعْتُ زَوْرَقًا  
 كَبِيرًا يَسَعُ سِتَّةَ  
 وَعِشْرِينَ رَاكِبًا .

وَلَكِنِّي عَجَزْتُ عَنْ نَقْلِهِ إِلَى الْبَحْرِ ، وَأَعْيَيْتَنِي الْعَيْلُ فِي ذَلِكَ ،  
 وَاسْتَحَالَ عَلَيَّ أَنْ أُزْحِرِحَهُ عَنْ مَكَانِهِ ، كَمَا اسْتَحَالَ عَلَيَّ أَنْ أُزْحِرِحَ  
 زَوْرَقَ السَّفِينَةِ مِنْ قَبْلُ .

## ٥ - الزورق الجديد

وانقضى العام الرابع، فانتظمت أموري واستقامت. وقد صنعتُ  
- فيما صنعتُ - قلدسوة<sup>(١)</sup> كبيرة من فراء الجداء التي تصيدتها،



كما صنعتُ منها جلبابِي وسِرْوَالِي  
وبعضَ الثيابِ، لتَقِينِي غائِلَةَ  
البرْدِ في الشتاء. وصنعتُ مظلةً  
لتَقِينِي غائِلَةَ الحرِّ في الصيفِ  
- فقد كانتِ الجزيرةُ واقعةً  
بالقربِ من خطِّ الاستواءِ،  
وكانَ قِيظُها<sup>(٢)</sup> لذلكَ لا يُحتمَلُ -  
فسهَّلتُ على السَّيرِ نهارًا من  
غَيرِ عَناءٍ، وآمَنتُني مِنَ المَطَرِ

والشمسِ. وكانَ شُغلي الشاغلُ أنْ أصنعَ زورقًا أصغرَ مِنَ الزورقِ  
الَّذي صنعتُهُ. ولمْ يَنْتهِ العامُ الخامسُ حَتَّى أتممتُ صنعةً. ونجحتُ

(٢) حرها

(١) عطاء رأس

فِي ذَلِكَ نَجَاحًا بَاهِرًا . فَجَمَلْتُ لَهُ شِرَاعًا ، وَثَبَّتُ فِيهِ مِظْلَةً كَبِيرَةً .  
وَعَقَّدْتُ الْعَزْمَ عَلَى الطَّوَافِ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ لِاتِّعْرَافِ مَدَى هَذِهِ  
الْمَمْلَكَةِ الَّتِي كَتَبَ عَلَى الْقَدْرِ أَنْ أَكُونَ مَلِيكَهَا ، أَوْ - عَلَى  
الْأَصَحِّ - مَدَى هَذَا السَّجْنِ الَّذِي أَتَيْتُ عَلَى التَّقَادِيرِ إِلَّا أَنْ أَكُونَ  
حَلِيفَةً<sup>(١)</sup> وَسَجِينَهُ .

وَهَكَذَا أَعَدَدْتُ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ لِهَذِهِ الرَّحْلَةِ . وَلَمْ أَنْسَ سِلَاحِي  
لِادْفَاعِ بِهِ عَنِ نَفْسِي إِذَا حَانَ وَقْتُ الْخَطَرِ . وَأَزْمَعْتُ<sup>(٢)</sup> التَّجْوَالَ حَوْلَ  
الْجَزِيرَةِ ، بَعْدَ تَرَدُّدِ طَوِيلٍ .

#### ٦ - الطَّوَافُ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ

وَبَدَأْتُ هَذِهِ الرَّحْلَةَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ « نَوْفَمْبَرٍ » ، بَعْدَ  
أَنْ مَرَّ عَلَى سِتَّةِ أَغْوَامٍ فِي مَمْلَكَتِي ، أَوْ فِي سِجْنِي إِنْ تَوَخَّيْتُ<sup>(٣)</sup>  
الْصُّدْقَ فِي التَّغْيِيرِ ! وَكَانَتْ هَذِهِ السِّيَاحَةُ أَطْوَلَ مِمَّا قَدَّرْتُ .

وَقَدْ تَعَرَّضْتُ - فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ - لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطَارِ ،  
وَلَكِنْ تَوَفَّقَ اللَّهُ لِإِزْمَانِي ، حَتَّى عُدْتُ إِلَى يَتِيِّ الرَّيِّبِيِّ - ذَاتَ  
مَسَاءٍ - وَقَدْ جَهَدَنِي<sup>(٤)</sup> التَّعَبُ ، فَاسْتَسَلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .

(١) ملازمه . (٢) قررت . (٣) قصدت . (٤) أنعمت .

## ٧ - مُفَاجَأَةُ الْبَيْتَاءِ

شَدَّ مَا تَمَلَّكَنِي الدَّهْشُ حِينَ طَرَقَ أُذُنِي صَوْتُ مُنَادِيَنِي بِاسْمِي ،  
وَيَقُولُ فِي وُضُوحٍ وَجَلَاءٍ :

« رُوبِنْسَنُ ! إِيهِ يَا رُوبِنْسَنُ ! هَا أَنْتَ ذَا يَا رُوبِنْسَنُ ! مِسْكِينُ أَنْتَ



يَا رُوبِنْسَنُ ! أَيْنَ أَنْتَ ؟ وَأَيْنَ  
كُنْتَ ؟ وَكَيْفَ تَجِدُكَ يَا رُوبِنْسَنُ  
كُرُوزُو ؟»

وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي حَالِمٌ ،  
وَلَكِنَّ الصَّوْتَ حَادًا يَقُولُ :

« رُوبِنْسَنُ كُرُوزُو ! إِيهِ يَا رُوبِنْسَنُ !»

فَاسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي الْعَمِيقِ ،  
وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الدَّهْشَةُ وَالذُّعْرُ .

وَمَا تَبَيَّنْتُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ حَتَّى

حَاوَدْتَنِي الطَّمَانِينَةُ ، وَسُرِّيَ عَنِّي نَفْسِي <sup>(١)</sup> ، إِذْ عَلِمْتُ أَنَّ بَنَانِي هِيَ

( ١ ) ذهب عنها الفزع .

مصنَّدرُ هذا الصَّوتِ . فقد رأيتها قائمةً على السَّيَّاحِ ، فمَجِبْتُ مِنْ  
 اهْتِدَائِهَا إِلَى هَذَا الْبَيْتِ ، وَقَدْ تَرَكْتُهَا فِي الْكَهْفِ . وَعَجِبْتُ مِنْ تَخْيِرِهَا  
 هَذَا الْمَكَانَ . وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللُّغْزِ . ثُمَّ نَادَيْتُهَا بِاسْمِهَا ، فَأَسْرَعَتْ  
 إِلَيَّ ، وَوَقَّفتْ عَلَيَّ إِبْهَامِي ، وَهِيَ تُكْرِرُ سُؤَالَهَا مَسْرُورَةً مُتَبَهِّجَةً بِلِقَائِي :  
 « أَيْنَ كُنْتَ يَا رُوبِنْسَنُ كُرُوزُؤُ ؟ أَيْنَ كُنْتَ يَا مِسْكِينُ ؟ »  
 فَأَخَذْتُهَا مَعِيَ إِلَى الْكَهْفِ ، حَيْثُ عِشْتُ زُهَاءً عَامٍ<sup>(١)</sup> فِي عَزَلَةٍ  
 السَّجِينِ وَلَمْ يَكُنْ يُنْصَحُ<sup>(٢)</sup> عَلَيَّ صَفَائِي وَسَعَادَتِي فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ  
 إِلَّا أَنَّهَا مُقْفَرَةٌ عَازِبَةٌ<sup>(٣)</sup> لَيْسَ بِهَا أُنَيْسٌ .

### ٨ - صَيْدُ التَّمِيِزِ

وَقَدْ أَتَقَنْتُ كَثِيرًا مِنَ الصَّنَاعَاتِ ، وَبَرَعْتُ فِيهَا بِرَاعَةِ نَادِرَةٍ ،  
 وَنَجَحْتُ فِي صِنَاعَةِ الْفَخَّارِ وَعَمَلِ السَّلَالِ . وَكُنْتُ أَصْطَادُ التَّمِيِزِ  
 وَالسَّلَاحِ كَمَا أَحْتَجُّ إِلَى ذَلِكَ . فَرَأَيْتُ الْبَارُودَ الَّذِي أَدَّخَرْتُهُ عِنْدِي  
 قَدْ نَقَصَ ، فَخَشَيْتُ أَنْ يَنْفَدَ ، وَبِذَلِكَ أَعْجِزُ أَنْ أَصْطَادَ شَيْئًا مِنَ الْحَيَوَانِ .  
 فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَغْيِيرِ خُطَّتِي<sup>(٤)</sup> هَذِهِ ، فَتَنَصَّبْتُ شِبَاكًا لِأَصْطَادِ

(١) نحوسة . (٢) نكدر . (٣) بعيدة . (٤) طريقتي . . .



مَعِيزًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ . وَلَمْ تَكُنْ شِبَاكِي صَالِحَةً لِمَصِيدِهَا ، فَقَدْ أَفَلَتَتْ مِنْهَا الْمَعِيزُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا ، لِيَضْمَفِ حِبَالِهَا . فَلَجَأْتُ إِلَى طَرِيقَةٍ أُخْرَى .

وَذَلِكَ أَنِّي حَفَرْتُ حُفْرًا عَمِيقَةً فِي الْجِهَاتِ الَّتِي أَعْتَادَتِ الْمِعْزَى أَنْ تَرْتَادَهَا<sup>(١)</sup> ، وَغَطَّيْتُ تِلْكَ الْحُفْرَ بِشِبَاكٍ مِنْ شَجَرِ الصَّفْصَافِ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْهَا طَبَقَةً مِنَ التُّرَابِ ، وَغَرَسْتُ فِيهَا سَنَابِلَ مِنَ الرُّزِّ وَالشَّعِيرِ . وَقَدْ أَخْفَقْتُ<sup>(٢)</sup> هَذِهِ الطَّرِيقَةَ — كَمَا أَخْفَقْتُ سَابِقَتَهَا مِنْ قَبْلُ — فَقَدْ كَانَتْ الْمَعِيزُ تَنْفِرُ مِنْهَا . ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ خُدِعْتُ — بَعْدَ قَلِيلٍ — فَهَوَى فِي إِحْدَى الْحُفْرِ تَيْسٌ عَنِيدٌ ؛ فَلَمْ أَفْلِحْ فِي تَسْكِينِ ثَوْرَتِهِ وَهَيَاجِهِ ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى إِطْلَاقِهِ . وَلَوْ أَنِّي تَرَكَتُهُ فِي الْحُفْرَةِ أَيَّامًا حَتَّى يَدْوُخَهُ الْجُوعُ فَيَسْتَأْسِ<sup>(٣)</sup> قِيَادَهُ ، لَمَّ لِي مَا أَرَدْتُ . وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ لَمْ تَمُرَّ بِخَاطِرِي إِلَّا نَيْشًا<sup>(٤)</sup> .

ثُمَّ وَقَعَ فِي حُفْرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مَاعِزَتَانِ صَغِيرَتَانِ وَجَدَى صَغِيرٌ ، فَأَخَذْتُهَا جَمِيعًا إِلَى مَسْبَكِنِي . وَقَدْ أَبَتْ أَنْ تَأْكَلَ شَيْئًا . ثُمَّ رَاضَهَا الْجُوعُ<sup>(٥)</sup> ، وَأَضْطَرَّهَا إِلَى أَكْلِ مَا قَدَّمْتُهَا لَهَا مِنَ الْحُبُوبِ .

(١) . تروح فيها وتجي . (٢) لم تنجح . (٣) يلين . (٤) بعد فوات الفرصة (٥) دلهما .

وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي تَهْيِئَةِ مَرْعَى خِصْبٍ ، وَسَوَّرْتُهُ بِسِيَاجِ مَتِينٍ  
 مِنَ الْأَعْشَابِ الْكَثِيفَةِ ، حَتَّى لَا تَجِدَ إِلَى الْفِرَارِ سَبِيلًا .  
 وَظَلَلْتُ أَسْهَدُهَا بِأَحْسَنِ الْأَوَانِ الطَّعَامِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِهَا مِنْ  
 سَنَابِلِ الشَّعِيرِ وَحُبُوبِ الرُّزِّ حَتَّى أَنْسَتَ بِي . فَفَكَّكْتُ رِبَاطَهَا  
 فَلَمْ تَهْرُبْ مِنِّي ، وَظَلَّتْ تَتَّبِعُنِي أَنَّى سِرْتُ ، وَتَتَّمُو<sup>(١)</sup> فَرِحَةً بِمَقْدَمِي  
 كُلَّمَا رَأَتْنِي . وَبَعْدَ عَامٍ وَنِصْفِ عَامٍ أَصْبَحَ لَدَيْ قَطِيعٍ<sup>(٢)</sup> لَا يَقِلُّ  
 عَنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَدِيًّا وَعِزًّا . ثُمَّ تَضَاعَفَ الْمَدَدُ عَلَيَّ مَرَّةً الْأَيَّامِ ،  
 وَأَصْبَحْتُ حَيَاتِي رَعْدًا<sup>(٣)</sup> ، وَعَيْشَتِي وَاِدْعَاءَ نَاعِمَةٍ ؛ فَقَدْتُ كَانَتْ تُدْرُ<sup>(٤)</sup>  
 مَقَادِيرَ وَافِرَةٍ مِنَ اللَّبَنِ . فَلَمْ أَضِعْ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَعَزَمْتُ عَلَى صُنْعِ  
 الْجُبَيْنِ وَالزُّبْدِ مِنَ الْبَانِيَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِذَلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ .  
 وَمَا زِلْتُ أُدْرِبُ نَفْسِي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ ، حَتَّى وُفِّقْتُ إِلَيْهِ ، وَنَجَّحْتُ  
 فِي تَحْقِيقِهِ أَكْبَرَ نَجَاحٍ .

٩ - رِفَاقُ « رُوبِنْسِن »

وَكَانَتْ مَا يَدْتِي - فِي كُلِّ يَوْمٍ - حَافِلَةً<sup>(٥)</sup> بِشِئِي الْوَانِ

(١) تردد صوتها . (٢) جمع . (٣) هائلة . (٤) تعطي . (٥) مملوءة

الغذاء . وقد نَعِمْتُ بِرِفاقِ الحُلصاءِ : فالْبَيْضاءِ تُنادِئُني<sup>(١)</sup> وتُسَلِّني بِحَدِيثِها ، وَالْكَلْبُ يَجْلِسُ إلى يَمِينِي - عَلَى المائِدَةِ - وَيَجْلِسُ القِطَّانُ إلى يَسَارِي مُتقَابِلِي . وَقَدْ عَلِمَ القارِئُ - فِيما سَبَقَ - أَنَّني أَحضَرْتُ مَعِي قِطَّينِ مِنَ السَّفِينَةِ ؛ فَلْيَعْلَمِ القارِئُ الآنَ أَنَّهُما ماتا مُنذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، بَعْدَ أن نَسَلَا<sup>(٢)</sup> كَثِيراً مِنَ القِطَطِ ، وَلَمْ يُخْلِصْ لِي مِنْها غَيْرُ هَذَيْنِ القِطَّينِ . أَمَّا إِخْوَتُهُما فَكانتِ شَرِيرةً ما كَرَّةً ، تَسْرِقُ كُلَّ ما تَلقاهُ في طَرِيقِها مِنَ العِطامِ ؛ فَطَرَدْتُهُما مِنْ بَيْتِي شَرًّا طَرَدَةً ، بَعْدَ أن نَكَّلتُ بِها<sup>(٣)</sup> . فَهَرَبَتْ إلى العائِبَةِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ إِلا قَلِيلاً حَتَّى عادَتْ إلى طَبِيعِها الوَخِيشِيِّ الشَّرِسِ

### ١٠ - زِيُّ « رُوْبِنْسَن »

لَعَلَّ القارِئُ قَدِ اشْتاقَ إلى تَعْرِفِ الزُّيِّ<sup>(١)</sup> الَّذِي أَخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي كَلِّما أَرَدْتُ أن أَجولَ في مَمْلَكَتِي الصَّغِيرَةِ . فَلأَمثَلِ لَهُ ذَلِكِ الزُّيِّ العَجِيبِ :

(١) تبالسني . (٢) ولدا . (٣) آذيتها . (٤) اللبس .

كَانَتْ قَلَنْسُوتِي <sup>(١)</sup> مُرْتَفَعَةً ، وَقَدْ صَنَعْتُهَا مِنْ جِلْدِ عَظْرِ .  
وَكَانَتْ عَذَبْتُهَا <sup>(٢)</sup> مُدَلَّاةً عَلَى قَفَايَ لِتَحْمِيَنِي مِنْ وَهْجِ الشَّمْسِ .

وَكَانَ سِرْوَالِي مَصْنُوعًا  
مِنْ جِلْدِ تَيْسِ هَرَمٍ ،  
وَالشَّعْرُ يَتَدَلَّى مِنْهُ إِلَى  
نِصْفِ سَاقِي .

\*\*\*

وَكُنْتُ أَضَعُ فِي  
حِزَابِي - وَهُوَ أَيْضًا

مِنْ جِلْدِ المَعِيزِ - مَنشَارًا وَقَدُومًا ،  
وَأَحْمِلُ عَلَى كَتِفِي بِنْدُوقِيَّةً ، وَأَحْمِلُ  
عَلَى ظَهْرِي سَلَّةً كَبِيرَةً ، فِيهَا  
طَعَامِي وَشَرَابِي ، وَفِي يَدَيَّ مِظَلَّتِي ،



لِتَقِيَنِي لَفْحَ الشَّمْسِ <sup>(٣)</sup> ، وَهُطُولَ الأَمْطَارِ .

(٣) حرما

(١) غطاء رأسي . (٢) طرفها

الفصل السابع

جُمعة

١ - آثارُ أقدامٍ



وفي ذاتِ يومٍ  
رَأَيْتُ آثَارَ أَقْدَامٍ  
وَاضِحَةً عَلَى الرَّمْلِ ؛  
فَتَمَلَّكَنِي الدُّعْرُ ،  
وَحَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّ صَاعِقَةً  
أَنْقَضَتْ عَلَى .

وَتَلَفَّتْ حَسُولِي  
خَائِفًا ، وَأَرْهَفْتُ  
أُذُنِي <sup>(١)</sup> فَلَمْ أَرَ إِنْسَانًا ،  
وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتًا .  
وَصَعِدْتُ إِلَى أَعْلَى

(١) أصغيت .

هَضْبَةً مُرْتَمِعَةً ، وَأَجَلْتُ لِحَاظِي فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَلَمْ أَحِدْ شَيْئًا يَدُلُّ عَلَيَّ  
 أَنَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ إِنْسِيًّا . وَقَدْ كَدْتُ أَظُنُّنِي وَاهِمًا<sup>(١)</sup> فِيمَا رَأَيْتُ ،  
 وَلَكِنْ آتَاكَ الْقَدَمُ - وَهِيَ حَارِيَّةٌ - لَمْ تَدْبَعْ لِي مَجَالًا لِلشَّكِّ .  
 فَقَدْ رَأَيْتُ الْأَصَابِعَ وَالْعِقَبَ مُرْتَسِمَةً عَلَيَّ الرَّمْلِ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي  
 رَيْبٌ<sup>(٢)</sup> فِي حَقِيقَةِ مَا رَأَيْتُ . فَأَسْرَعْتُ إِلَى كَهْفِي ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ  
 أَنَّ جَيْشًا آجِبًا<sup>(٣)</sup> يُطَارِدُنِي . وَبِتُّ لَيْلَةً نَائِغِيَّةً<sup>(٤)</sup> ، وَلَمْ يَزِرِ النَّوْمُ جَفْنِي  
 حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ .

وَلَزِمْتُ يَدَيَّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةً ، ثُمَّ اضْطَرَرْتُ الْجُوعُ إِلَى الْخُرُوجِ  
 إِلَى يَدَيَّ الْآخِرِ الَّذِي بَنَيْتُهُ بَيْنَ الْكُرُومِ<sup>(٥)</sup> .

## ٢ - الْحَيْظَةُ

وَهَكَذَا تَمَلَّكَنِي النَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ . فَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ - فِي هَذِهِ  
 الْجَزِيرَةِ - خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا ، لَمْ أَشْهَدْ فِيهَا أَحَدًا ، عَلَيَّ الرَّغْمِ مِنْ  
 دُوَيْبِي أَمْرٍ الْقَدَمِ .

(١) متخيلاً . (٢) شك . (٣) كدراً .  
 (٤) ليلة طويلة حاملة بالهموم . (٥) أشجار العنب .

ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي : « لَعَلَّ بَعْضَ سُكَّانِ تِلْكَ الْقَارَةِ الْمَجَاوِرَةِ  
قَدْ وَفَدُوا عَلَيَّ جَزِيرَتِي ؛ عَلَى أَنَّهُمْ سَيَتَرَكُونَهَا بَعْدَ أَنْ يَجِدُوهَا غَيْرَ  
صَالِحَةٍ لِلْإِقَامَةِ . »

وَرَأَيْتُ أَنْ أَخْطَا لِلطَّوَارِي ، حَتَّى لَا يُفَاجِئَنِي الْأَعْدَاءُ ؛ فَزِدْتُ



فِي تَخْصِينِ مَعَارِئِي ، كَمَا حَصَّنْتُ يَتِيَّ الْآخِرَ .

وَكُنْتُ لَا أَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا مُسْتَعِينًا بِسَلْمَيْنِ ،

فَإِذَا أَنْتَهَيْتُ مِنْ سُعُودِي الْأَوَّلِ رَفَعْتُ السَّلْمَ ،

ثُمَّ وَضَعْتُهُ فَوْقَ صَخْرَةٍ نَائِيَةٍ <sup>(١)</sup> لِأَصِلَ إِلَى حِصْنِي .

ثُمَّ رَفَعْتُ السَّلْمَ مَرَّةً أُخْرَى ، لِيُصْبِحَ مُسْتَحِيلًا

عَلَيَّ كَأَنَّ كَانٍ أَنْ يَصْعَدَ إِلَيَّ .

وَلَمْ يَمُضِ عَلَيَّ عَامَانِ - بَعْدَ ذَلِكَ - حَتَّى

أَصْبَحْتُ عَلَى أُمَّ أَهْبَةٍ <sup>(٢)</sup> لِلنَّجَاةِ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ .

### ٣ - آثارُ النِّيلانِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كُنْتُ أُرْتَادُ الْجَزِيرَةَ عَلَيَّ عَادَتِي ،

(١) بعيدة . (٢) استعداد .

وَأَتَرَفُ الْجِهَاتِ النَّائِيَةِ الَّتِي لَمْ تَطَأْهَا قَدَمَايَ مِنْ قَبْلُ . فَرَأَيْتُ مِنْ آثَارِ  
 الْمُتَوَحِّشِينَ مَا فَزَعَنِي ، وَمَلَأَ قَلْبِي رُغْبًا وَهَلَمًا . فَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هَوْلَاءِ  
 الْمُتَوَحِّشِينَ الَّتِي يَجِيئُونَ بِالْأَسْرَى — بَعْدَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِمْ فِي مَعَارِكِهِمْ <sup>(١)</sup> —  
 إِلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، ثُمَّ يَشَوْنُ لُحُومَهُمْ عَلَى  
 النَّارِ وَيَأْكُلُونَهَا . وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ <sup>(٢)</sup> مُبَعَثَةً فِي  
 تِلْكَ الْبُقْعَةِ ، عَلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَ الرَّمَادِ الْكَثِيرِ الَّذِي خَلَفَتْهُ النَّارُ .

وَرَجَعْتُ إِلَى مَسْكَنِي مَهْمُومًا شَدِيدَ الْأَلَمِ مِمَّا رَأَيْتُ . وَتَبَيَّنَ لِي  
 — حِينَئِذٍ — أَنَّ آثَارَ تِلْكَ الْأَقْدَامِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي رَأَيْتُهَا مِنْذُ حَامَيْنِ ،  
 لَمْ تَكُنْ إِلَّا آثَارَ أَقْدَامِ هَوْلَاءِ الْغِيلَانِ . فَاطْمَأَنَّتُ نَفْسِي قَلِيلًا ،  
 بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ هَذَا السَّرَّ الَّذِي لَمْ أَهْتَدِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مَدَى حَامَيْنِ ،  
 وَكَانَ مَجْلَبَةً <sup>(٣)</sup> لِلْخَوْفِ وَالْفَزَعِ .

وَأَذْرَكْتُ أَنَّ هَوْلَاءِ الْغِيلَانِ لَا يَبْحَثُونَ عَنْ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ،  
 وَأَنَّهُمْ لَا يَجِيئُونَهَا إِلَّا لِيُتَقِيمُوا مَا دَبَّ بِهِمْ <sup>(٤)</sup> فِيهَا ، كُلَّمَا ظَفَرُوا بِأَسْرَاهُمْ  
 فِي الْحُرُوبِ .

(١) حروبهم . (٢) الأعداء . (٣) سبياً . (٤) مجالس أكلهم .



وَلَقَدْ مَرَّ بِي ثَمَانِيَةَ عَشَرَ حَامًا ، لَمْ تَقَعْ عَيْنَايَ - فِي اثْنَانِهَا -  
عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ . فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ ، اِعْتَصَمْتُ <sup>(١)</sup> بِالْحَذَرِ ، وَأَعَدَدْتُ  
الْعُدَّةَ لِلطَّوَارِي ؛ حَتَّى لَا تُفَاجِنِي الْحَوَادِثُ عَلَى غِرَّةٍ <sup>(٢)</sup> .

#### ٤ - مَادُبَةُ النِّيلَانِ

وَفِي شَهْرِ « دِيَسْمِيرِ » - وَكَانَ قَدَمَّرَ عَلَيَّ حِينَئِذٍ ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ  
حَامًا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الثَّانِيَةِ - لَمْ أَخْرُجْ مِنْ بَيْتِي لِلْحَصَادِ فِي  
فَجْرِ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى رَأَيْتُ نُورًا بِالقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، عَلَيَّ بَعْدَ  
نِصْفِ مِيلٍ مِنْ بَيْتِي . وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ هَؤُلَاءِ النِّيلَانَ يَرْتَادُونَ هَذِهِ  
الْبُقْعَةَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَدَهَشْتُ ، وَتَمَلَّكَنِي الرَّعْبُ وَالْفَزَعُ . وَرَجَعْتُ  
إِلَى بَيْتِي مُسْرِعًا ، وَرَفَعْتُ السَّلْمَ ، وَتَأَقَّبْتُ لِلدَّفَاجِ عَنْ نَفْسِي .  
وَوَظَلِلْتُ أَتَرَقَّبُ الْعُدُوَّ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ لَمْ أُطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبَقَاءِ أَكْثَرَ  
مِنْ ذَلِكَ ؛ فَصَعِدْتُ حَتَّى بَلَغْتُ أَعْلَى الصَّخْرَةِ - بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ عَلَيْهَا  
السَّلْمَيْنِ - وَأَنْبَطَحْتُ عَلَى الْأَرْضِ . وَنَظَرْتُ إِلَيْهِمْ بِمِنْظَارِي ؛ فَرَأَيْتُ  
تِسْعَةً مِنْ هَؤُلَاءِ النِّيلَانِ جَالِسِينَ - فِي شَكْلِ حَلْقَةٍ - حَوْلَ نَارٍ

(١) تمكنت . (٢) غفلة .

مُوقَدَةٍ ، لِيُهَيِّئُوا طَعَامَهُمْ مِنَ الْأَسْرَى الَّذِينَ جَاءُوا بِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ .



وَقَدْ جَاءَ النِّيلَانُ عَلَى  
زُورَقَيْنِ ، وَجَذَبُوهُمَا  
إِلَى الشَّاطِئِ ، وَانْتَظَرُوا  
الْجَزَرَ حَتَّى يَمُودُوا  
أَدْرَاجَهُمْ . فَعَلِمْتُ  
أَنََّّهُمْ لَا يَرَكِبُونَ  
الْبَحْرَ إِلَّا فِي أَوْقَاتِ  
الْجَزْرِ ، فَاطْمَأَنَنْتُ  
نَفْسِي إِلَى ذَلِكَ ،  
وَأَصْبَحْتُ أَمْشِي فِي  
الْجَزِيرَةِ آمِنًا ، فِي

أَوْقَاتِ الْمَدِّ . فَإِذَا أَنْحَسَرَ مَاءُ الْبَحْرِ أَخَذْتُ حَذْرِي مِنْهُمْ ، وَأَسْتَمَدَدْتُ  
لِلطَّوَارِيِ وَالْمُفَاجَأَاتِ . وَلَمْ يَبْدَأِ الْجَزْرُ حَتَّى رَكَبُوا الزُّورَقَيْنِ .  
بَعْدَ أَنْ رَقَصُوا طَوِيلًا ، وَظَلُّوا يَجِدُّفُونَ بِقُوَّةٍ حَتَّى اخْتَفَوْا عَن نَظْرِي ،

فَأَسْرَعْتُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ هَوْلَاءُ الْفِيلَانِ؛ فَرَأَيْتُ



— مِنْ أَثَرِ الْمَادْبَةِ الَّتِي

أَقَامُوهَا — مَا رَوَّعَنِي؛

رَأَيْتُ الْعِظَامَ الْبَشَرِيَّةَ

مُتَنَائِرَةً حَوْلَ النَّارِ؛

فَنَارَتْ نَفْسِي، وَكِدْتُ

أَتَمِيزُ مِنَ الْفَيْظِ. وَقَدْ أَشْتَدَّ حَنْقِي <sup>(١)</sup> عَلَى هَذِهِ الْقَسْوَةِ، وَعَزَمْتُ عَلَى

الْفَتْكَ بِأَوَّلِ مَنْ أَقَابَلُهُ مِنْ هَوْلَاءِ الْفِيلَانِ .

### ه — نَجَاةُ الْأَسِيرِ

وَضَلَلْتُ مُصْرًا عَلَى مُنَاجَزَةِ <sup>(٢)</sup> الْفِيلَانِ مُدَّةً طَوِيلَةً . وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ

ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، لَمْ أَعُثْ — فِي أَثْنَائِهَا — عَلَى أَثَرِ لِهَوْلَاءِ الْهَمِجِ .

وَفِي صَبَاحِ يَوْمٍ رَأَيْتُ عَلَى الشَّاطِئِ سِتَّةَ زَوَارِقَ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ عَدَدَ

الْقَادِمِينَ لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِينَ . فَرَجَعْتُ إِلَى حِصْنِي، وَرَأَيْتُهُمْ

(١) زاد غيظي . (٢) محاربة .

بِمِنْظَارِي؛ فَكَانَ عَدَدُهُمْ كَمَا تَوَقَّعْتُ مِنْ قَبْلُ . وَتَأَهَّبْتُ لِمُنَاجَزَتِهِمْ ،  
 كَلَّفَنِي ذَلِكَ مَا كَلَّفَنِي . وَرَأَيْتُهُمْ يَرْقُصُونَ وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِمْ  
 الْمَرْحُ (١) . ثُمَّ أَحْضَرُوا أَسِيرِينَ ، فَقَتَلُوا أَحَدَهُمَا ، وَأَتَهَزَّ الثَّانِي فُرْصَةً  
 اشْتِنَاهُمَا بِالْأَوَّلِ فَلَاذًا بِالْفِرَارِ . وَظَلَّ يَمْدُو بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ ، وَتَبِعَهُ  
 ثَلَاثَةٌ مِنَ النَّيْلَانِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا اللَّحَاقَ بِهِ .

ثُمَّ اعْتَرَضَهُ خَلِيجٌ صَغِيرٌ؛ فَالْتَقَى بِنَفْسِهِ فِيهِ ، وَسَبَّحَ بِقُوَّةٍ عَجِيبَةٍ حَتَّى  
 أَدْرَكَ الشَّاطِئَةَ الْآخَرَ ، وَلَمْ يُبَالِ بِإِرْتِفَاعِ الْمَدِّ وَأَصْطِخَابِ الْأَمْوَاجِ .  
 وَتَعَبَّهُ اثْنَانِ ، وَعَادَ الثَّلَاثُ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَرَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِإِتْقَادِ هَذَا الْأَسِيرِ؛ لِأَنِّي كُنْتُ فِي أَشَدِّ  
 الْحَاجَةِ إِلَى خَادِمٍ يُعَاوَنُنِي فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفَرَةِ الْعَازِبَةِ .

فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِمْ - وَفِي يَدِي بُنْدُقِيَّتِي - وَأَشْرْتُ إِلَى الْأَسِيرِ أَنْ  
 يَقِفَ؛ فَلَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ إِلَيَّ ، وَخَشِيَ أَنْ يَدْنُو (٢) مِنِّي ، وَحَسِبَنِي  
 مِنْ أَعْدَائِهِ . ثُمَّ فَاجَأَتْ أَحَدَ الْمُتَوَحِّشِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعَانِي ، فَضَرَبَتْهُ  
 بِقَبْضَةِ بُنْدُقِيَّتِي ضَرْبَةً شَدِيدَةً؛ فَخَرَّ صَرِيحاً (٣) عَلَى الْأَرْضِ . وَحَاوَلَ

(١) الفرح . (٢) يقرب . (٣) وقع ساقطاً .

الثاني أن يفوق<sup>(١)</sup> إلى سهامه ؛ فماجلتُهُ برصاصه أزدته - من قوره - قتيلاً .

ووقف الأسير الهارب - حينئذ - وقد تملكه الذعر حين سمع دوى<sup>(٢)</sup> الرصاص ، ولم يكن له يمثل ذلك عهد من قبل . فأشرتُ إليه أن يدنو مني ؛ فتردد في إطاعة أمري . فأشرتُ إليه مرة ثانية ؛ فأشدتُ فزعهُ ، وظلَّ يتقدم خطوات يسيرة<sup>(٣)</sup> ، ثم يقف متردداً وقد أذهله الرعب . فأشرتُ إليه إشارة مألوفة ، وأنا أحاول جهدي أن أطمئنه وأسكن من روعه . فتقدم حتى داناني ، وجثا<sup>(٤)</sup> أمامي متوسلاً صارعاً ؛ فهششتُ له ، فالتفتي يقبلُ قدمي ؛ فتلطفتُ له متودداً حتى أذهبتُ عنه الخوف . ثم صحبته إلى مغارتي ، وأطمئنته وسقيته ، وأشرتُ إلى كومة من القش ، ليأخذها فراشاً له ؛ فذهب لينام .

## ٦ - « جُمعة »

وهكذا اتقضى زمنُ العزلة ، وأصبح لي - منذ ذلك اليوم -

(١) يوجه . (٢) صوت . (٣) قليلة . (٤) قد على ركبتيه .

رَفِيقٌ أَمِينٌ ، شُجَاعُ الْقَلْبِ ، فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ : لَمْ تَكُنْ سِنُهُ  
تَزِيدُ عَلَى خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا . وَكَانَ هَذَا الْخَادِمُ مِثَالَ النَّشَاطِ  
وَالذَّكَاةِ وَالْوَدَاعَةِ .

وَلَمْ يَنْمَ نِصْفَ سَاعَةٍ حَتَّى اسْتَيْقَظَ ، وَخَرَجَ مِنَ الْكَهْفِ  
مُسْرِعًا ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى - وَكُنْتُ أَحْلَبُ عَزًّا - فَانطَرَحَ عَلَى  
قَدَمِي ، وَرَفَعَهَا فَوْقَ رَأْسِهِ ، لِيُفْهِمَنِي أَنَّهُ طَوَّعَ أَمْرِي وَرَهْنُ إِشَارَتِي .  
فَهَشَّشْتُ لَهُ وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى رَكَنَ إِلَيَّ ، وَسُرِّيَ عَن نَفْسِهِ (١) ،  
وَانقَضَى مَا كَانَ يُسَاوِرُهُ (٢) مِنَ الْفَلَقِ .

ثُمَّ بَدَلْتُ جُهْدِي فِي تَعْلِيمِهِ لِنَفْسِي ، لِيَسْهَلَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَفَاهَمَ مَعًا .  
وَقَدْ سَمَّيْتُهُ « جُمُعَةً » ؛ لِأَنِّي أَتَقَدَّضْتُ مِنَ الْهَلَاكِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ  
الْجُمُعِ ، وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُهُ فِيهِ . ثُمَّ أَشْرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُسَمِّيَنِي  
« أَلْسَيْدًا » ، وَعَلَّمْتُهُ لَفْظَتِي : « نَعَمْ » وَ « لَا » . ثُمَّ قَدَّمْتُ لَهُ جِرَّةً ،  
وَمَلَأْتُ الْجِرَّةَ لَبَنًا ، وَغَمَسْتُ فِيهَا قِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ وَأَكَلْتُ .  
وَأَشْرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِثْلِي ؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَقْلِيدِي فِيمَا رَأَى مِنِّي .

(١) ذهب هم . (٢) يشغله .

وَقَدْ اسْتَسَاعَ هَذَا الطَّعَامَ<sup>(١)</sup> ، وَبَدَأَ عَلَى وَجْهِهِ السُّرُورُ . ثُمَّ صَنَعَتْ لَهُ  
ثِيَابًا كَثِيَابِي ، وَقَلَنْسُوءَةً مِنْ جِلْدِ أَرْنَبٍ . وَصَنَعَتْ لَهُ - فِي الْيَوْمِ



التَّالِي - كُوْنًا  
بِالْقُرْبِ مِنْ كَهْفِي  
لِيَنَامَ فِيهِ ؛ لِأَنَّي  
كُنْتُ أَخْشَى أَنْ  
تَعَاوَدَهُ<sup>(٢)</sup> وَحَشِيَّتُهُ ،  
فَيَفْتِكَ بِي - فِي  
أَثْنَاءِ نَوْمِي -  
وَيَأْكُلَنِي .

عَلَى أَنْ الْآيَّامَ  
أَقْنَعْتَنِي - بَعْدَ  
ذَلِكَ - بِإِخْلَاصِهِ ؛

فَلَمْ أَرْنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْحَذَرِ مِنْهُ . وَقَدْ وَفَى لِي<sup>(٣)</sup> وَفَاءَ الْوَالِدِ لِأَبِيهِ ،

(١) وجدده للذيء . (٢) ترجع إليه . (٣) حافظ على .

وَكَانَ مُسْتَعِدًّا لِبَدْلِ رُوحِهِ فِدَاءً لِي . وَمَرَّتْ بِنَا الْيَوْمَ سَعِيدَةً وَادِعَةً (١) .

وَكَُنْتُ - فِي ذَاتِ يَوْمٍ - سَائِرًا مَعَ « جُنْمَةَ » فِي أَحَدِ الْأَخْرَاجِ ،  
فَأَطَلَقْتُ رِصَاصَةً عَلَى أَحَدِ الْجِدَاءِ ؛ فَصَرَغْتُ (٢) . وَمَا رَأَيْتُ صَرَغْتُ

الْجَدْيَ - وَأَنَا عَلَى مَسَافَةٍ  
بَعِيدَةٍ مِنْهُ - حَتَّى اشْتَدَّ  
ذُعْرُهُ ، وَانْتَضَمَهُ الرَّعَاشُ  
مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ . فَقَدَّ  
أَذْهَلَهُ صَوْتُ الرِّصَاصَةِ ،  
وَوَظَلَ يَبْحَثُ فِي ثِيَابِهِ ،  
وَهُوَ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ  
قَدْ أَصَابَتْهُ مِنْ حَيْثُ لَا  
يَشْعُرُ . فَلَمَّا أَيَقَنَ أَنَّهُ لَمْ



يُصِيبُهُ أَقْلُ ضَرَرٍ ، انْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي ضَارِعًا (٣) أَلَّا أَقْتُلَهُ .  
فَعَطَمَاتُهُ - مَرَّةً أُخْرَى - وَلَا طَفَّتُهُ ، وَأَشْرَتْ لِي إِلَيْهِ أَنْ

(١) هادئة . (٢) تطلته . (٣) راجياً .



يَذْهَبَ لِيُخْضِرَ الْجَدَى . ثُمَّ أَرَيْتُهُ بُنْدُقِيَّتِي ، وَصَوَّبْتُهَا إِلَى بَيْغَاءِ  
 جَائِمَةٍ<sup>(١)</sup> عَلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أُرِيدُ صَيْدَ تِلْكَ الْبَيْغَاءِ .  
 وَمَا أَطْلَقْتُ عَلَيْهَا الرِّصَامَةَ حَتَّى أَشْتَدَّ ذُعْرُهُ ، وَعَجِبَ مِنِّي فَعَلْتُ أَشَدَّ  
 الْعَجَبِ ، وَتَمَلَّكْتُهُ الْحَيْرَةُ ؛ وَأَصْبَحَ يَرْتَمِدُ خَوْفًا كَمَا رَأَى تِلْكَ الْبُنْدُقِيَّةَ .  
 وَكَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ يُكَلِّمُهَا مُسْتَعِظَمًا ، ضَارِعًا إِلَيْهَا أَنْ تُبْقِيَ عَلَى حَيَاتِهِ ،  
 وَأَلَّا تَصْرَعَهُ كَمَا صرَعَتْ غَيْرَهُ مِنْ قَبْلُ ! وَلَمَّا جَاءَ الْمَسَاءُ سَلَخْتُ الْجَدَى ،  
 وَشَوَيْتُهُ ، وَأَطْمَنْتُ « جُمُعَةً » مِنْ لَحْمِهِ ؛ فَاسْتَمْرَأَهُ<sup>(٢)</sup> . وَأَصْبَحَ  
 — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — يَمَافُ<sup>(٣)</sup> اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ ، وَلَا يَسْتَسِيغُهُ طَعَامًا .

### ٧ - نَشَاطُ « جُمُعَةٍ »

وَفِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ دَرَّبْتُ « جُمُعَةً » عَلَى الْحَرْثِ وَالْبَذْرِ ، وَوَضَعْتُ  
 الشَّعِيرَ فِي السَّلَالِ ، وَطَحَنِيهِ وَعَجَنِيهِ وَخَبَزِيهِ . وَلَمْ يَمُضِ عَلَيْهِ زَمَنٌ يُسِيرُ  
 حَتَّى أَكْسَبَتْهُ الْمَرَانَةُ قُدْرَةَ نَادِرَةٍ عَلَى صُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ دَرَّبْتُهُ عَلَيْهِ .  
 وَأَصْبَحَ لِي خَيْرَ مِعْوَانٍ ، بِفَضْلِ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ الذِّكَاةِ وَالنَّفْسَاطِ

(١) قاعدة . (٢) استحسنه . (٣) يكره .

وَالْإِخْلَاصِ . وَشَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ تَعَمَّرَ نِي (١) ، مُنْذُ وَجَدْتُ ذَلِكَ الْمَعِينَ  
 الذِّكْرِيَّ . وَقَدْ أَصْبَحَ يُخْلِصُ لِي بِمِقْدَارِ مَا أُخْلِصُ لَهُ ؛ وَتَوَثَّقْتُ  
 أَوْاصِرُ الْمَحَبَّةِ بَيْنَنَا ، وَعَرَفَ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا ، وَحَدَقَ  
 تَخْطِيطَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ وَمَسَالِكِهَا ؛ فَأَرَاخِنِي مِنَ الْعَمَاءِ ، وَوَفَّرَ لِي  
 سَبَابَ الرِّاحَةِ ، وَكَانَ لِي نِعْمَ الْأَنْبَسُ .

#### ٨ - وَطَنُ « جُمُعَةٌ »

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ جَرْنَا الْحَدِيثَ إِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْوَطَنِ ؛ فَسَأَلْتُهُ  
 عَنْ طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَى وَطَنِهِ ، وَهَلْ يَأْمَنُ رَاكِبُ الْبَحْرِ عَلَى نَفْسِهِ  
 فِي أَتَاءِ هَذِهِ الطَّرِيقِ ؟ فَأَنْبَتَ أَنَّ الْوُصُولَ إِلَى وَطَنِهِ أَمْرٌ مَيْسُورٌ .  
 وَظَلَّ يُحَدِّثُنِي عَنْ وَطَنِهِ أَحَادِيثَ الْمُنْجَبِ الْمَفْتُونِ بِهِ . وَقَدْ أَخْبَرَنِي  
 أَنَّ فِي الْجِهَةِ النَّزْيِيَّةِ مِنْ بِلَادِهِمْ قَوْمًا بِيضَ الْوُجُوهِ ؛ فَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ  
 يَمْنَى بِذَلِكَ قَوْمًا مِنَ الْإِسْبَانِيِّينَ ، وَأَنَّ طَرِيقَ الذَّهَابِ إِلَيْهِمْ مَيْسُورٌ  
 مَأْمُونٌ . فَأَنْفَتَحَ أَمَامِي بَابُ الْأَمَلِ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ خَلَاصِي  
 مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ قَرِيبٌ . وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى إِعْدَادِ الْمَعَدَّاتِ لِلْسَّفَرِ

(١) تَمَلَّأْتُ نَفْسِي .

إلى هؤلاء القوم ، حيثُ أجدُ الوسائلَ مهيأةً للرجوعِ إلى وطني .



مِمَّ حَدَّثَنِي أَنَّ زَوْزَقًا كَبِيرًا  
قَدِ انْقَلَبَ بِرَأْيِهِ - مِنْذُ  
أَعْوَامٍ - وَكَانُوا سَبْعَةَ عَشَرَ  
رَجُلًا مِنَ الْبَيْضِ أَمْثَالِي ، وَقَدْ  
نَجَّوْا مِنَ الْفَرَقِ ، وَأَقَامُوا  
- وَمَا زَالُوا يُقِيمُونَ - بَيْنَ  
عَشِيرَتَيْهِ وَقَوْمِهِ .

فَسَأَلْتُهُ : « وَكَيْفَ سَلِمُوا  
مِنْ عَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكَ ؟  
أَلَمْ يَأْكُلُوهُمْ ؟ »  
فَقَالَ لِي مُتَبَيِّنًا :

« بَلْ أَصْبَحُوا إِخْوَةً لَنَا ؛ فَإِنَّ بَنِي وَطَنِي لَا يَأْكُلُونَ إِلَّا أَسْرَانَهُمْ  
فِي الْحَرْبِ : أَمَّا الْأَصْدِقَاءُ الْمُسَالِمُونَ فَلَا يَأْكُلُونَهُمْ بِسُوءٍ . »

## ٩ - ذِكْرِيَاتُ الْوَطَنِ

وَمَضَى عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ . ثُمَّ أُرْتَقَيْنَا<sup>(١)</sup> - ذاتَ  
يَوْمٍ - قِبَّةَ جَبَلٍ شَاهِقٍ<sup>(٢)</sup> ، وَكَانَ الْجَوُّ صَحْوًا ؛ فَلَاحَتْ<sup>(٣)</sup> الْقَارَةُ  
الْبَعِيدَةَ . وَمَا أُنْعَمَ « جُمُعَةٌ » نَظَرَهُ مُتَبَتِّتًا مِنْ رُؤْيَاةٍ وَطَنِهِ حَتَّى غَلَبَهُ  
السُّرُورُ عَلَى أَمْرِهِ ؛ فَظَلَّ يَقْفِزُ مِنَ الْقَرَّاحِ ، وَيَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :  
« وَافْرَحْتَاهُ ! وَاطْرَبَاهُ ! هَأَنْذَا أَرَى بِلَادِي ! هَأَنْذَا أَرَى وَطَنِي ! »  
وَأَمْتَلَأَ وَجْهَهُ بَشْرًا وَسُرُورًا ، وَارْتَسَمَتْ عَلَى أَسَارِيرِهِ<sup>(٤)</sup> دَلَائِلُ  
الْحَيْنِ وَالشُّوقِ إِلَى وَطَنِهِ ، فَسَأَلَتْهُ :  
« أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى بِلَادِكَ ؟ »  
فَأَجَابَنِي ، وَهُوَ يَتَحَرَّقُ شَوْفًا :  
« لَيْتَ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ تَتَحَقَّقُ ، يَا سَيِّدِي ! »  
فَقُلْتُ لَهُ :

« وَمَاذَا تَصْنَعُ فِي بِلَادِكَ ؟ أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى وَحْشِيَّتِكَ ، وَتَرْتَدَّ

(١) صدنا . (٢) عال . (٣) ظهرت . (٤) خطوط جبينه .

إِلَى طَبِيعَتِكَ الْأُولَى ، فَتُصْبِحُ غُولا تَأْكُلُ اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ ؟ »  
فَقَالَ لِي ، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ :

« كَلَّا ، كَلَّا . . . فَإِنَّ « جُمُعَةَ » لَنْ يَمُودَ غُولا كَمَا كَانَ ! وَسَوْفَ  
يُقْصُ عَلَى قَوْمِهِ كَيْفَ أَصْبَحَ يَسْتَمْرِي الْخُبْزَ وَاللَّبَنَ وَلَحْمَ الْأَغْنَامِ ،  
وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ لَذَائِدِ الطَّعَامِ . أَمَا لَحْمُ الْإِنْسَانِ فَقَدْ أَصْبَحَ « جُمُعَةَ »  
يَمَافَهُ وَلَا يُطِيقُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي اتِّخَاذِهِ طَعَامًا لَهُ . »  
فَقُلْتُ لَهُ : « لَوْ عَرَفُوا مِنْكَ ذَلِكَ لَأَكَلُوكَ ! »

فَقَالَ لِي : « كَلَّا ، لَا يَا كَلُونِي ، بَلْ يَتَمَلَّؤْنَ مِنِّي كَيْفَ يُنظَّمُونَ  
حَيَاتَهُمْ ، وَكَيْفَ يَسْتَسِيغُونَ أَطْيَبَ الْأَطْمَةِ . »  
فَسَأَلْتُهُ : « أَتُحِبُّ أَنْ تَمُودَ إِلَى بِلَادِكَ الْآنَ ؟ »  
فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا :

« لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ الْمَسَافَةَ الطَّوِيلَةَ سِبَاحَةً . »  
فَوَعَدْتُهُ بِإِعْدَادِ زَوْرَقٍ يُوصِلُهُ إِلَى وَطَنِهِ ؛ فَقَالَ لِي : « حَبِّدَا ذَلِكَ  
لَوْ تَمَّ ، عَلَى أَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي هَذِهِ الرَّحَلَةِ . وَسَتَرَى كَيْفَ يَنْمُرُكَ  
أَهْلُ وَطَنِي بِالْحُبِّ ، وَلَنْ يُفَكِّرَ أَحَدٌ فِي أَنْ يَأْكَلَكَ ، وَلَا سِيَّما

إِذَا أَحْبَبْتَهُمْ بِأَنَّكَ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي مِنَ الْهَلَاكِ .  
 وَمَا زَالَ يُحِبُّ إِلَى الذَّهَابِ مَعَهُ إِلَى وَطَنِهِ ، وَيُقْصِدُ عَلَى كَيْفِ  
 أَكْرَمُوا جَمَاعَةَ الْبَيْضِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَيْهِمْ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ ، وَكَيْفِ  
 أَنْسُوا بِهِمْ ، وَأَرْتَاخُوا إِلَى عِشْرَتِهِمْ ؛ حَتَّى أَجْمَعْتُ أَمْرِي <sup>(١)</sup> وَتَأَهَّبْتُ  
 لِهَذِهِ الرَّحْلَةِ ؛ لَعَلِّي أَسْكُنُ مِنَ الْعَوْدَةِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى وَطَنِي .

### ١٠ - الْمَرْكَبُ الشَّرَاعِيُّ

وَأَشْتَدَّتْ رَغْبَتِي فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْعِلْمِ الْجَمِيلِ ، فَذَهَبْتُ مَعَ  
 « جُمُعَةَ » إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَضَعْتُ فِيهِ زَوْرَقِي ، ثُمَّ رَكِبْنَا مَعًا ؛  
 فَرَأَيْتُ « جُمُعَةَ » أَمَرَ مِنِّي وَأَقْدَرَ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ وَمُضَاعَفَةِ السَّرْعَةِ .  
 فَقُلْتُ لَهُ : « أِنِّي اسْتَطَاعَتِكَ الْآنَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى وَطَنِكَ ؟ »  
 فَقَالَ : « لَنْ يَحْتَمِلَ هَذَا الزَّوْرَقُ الصَّغِيرُ تِلْكَ الرَّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ . »  
 فَقُلْتُ لَهُ : « عَلَيْنَا أَنْ نَعِدَّ زَوْرَقًا أَكْبَرَ مِنْهُ لِتَرْكَبَهُ إِلَى وَطَنِكَ . »  
 فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَقَالَ لِي مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا :

« ما الذى أغضب سيدي على؟ وما بال سيدي يحاول أن يقصى<sup>(١)</sup> »

عنه خادمه جُمعة؟ »

فقلت له: « ألا تتمنى أن تعود إلى وطنك؟ »

فقال: « نعم، نعم، أتمنى ذلك من صميم قلبي، على أن أكون رفيقك في العودة إلى بلادي. أما أن أترك صحبتك وأعود وحدي، فلا سبيل إلى ذلك. فليس في قدرتي أن أحتمل فراقك بعد أن امتلأ قلبي بحبك، أيها السيد الكريم، الذى غمرني بمطفه، وطوق عنق بصنائمه<sup>(٢)</sup>. » فتظاهرت بالإصرار<sup>(٣)</sup> لأختبر مدى حبه إياي.

فلما رآني جاداً في رفضي، غاب عنى قليلاً، ثم عاد إلى وني يده قدوم، وقال لي، وقد تملكه اليأس والحزن:

« برّبك أقتلني بهذه القدوم، وأرحني من الحياة، ما دمت مصراً

على إرسال « جُمعة » إلى قومه! »

فلم أتردد في إظهار موافقتي على السفر معه، بعد أن بلوت إخلاصه<sup>(٤)</sup>، وعرفت مدى حبه إياي. ووعده<sup>(٥)</sup> بتحقيق أميته في

(١) يبعد . (٢) بذائمه الجيلة . (٣) العزم واللبات . (٤) عرفته .

مُراقبته إلى وطنه . ولم نُضِعْ وَقْتَنَا عَبَثًا ، بَعْدَ أَنْ عَزَمْنَا عَلَى الْقِيَامِ  
 بِهَذِهِ الرَّحَلَةِ الطَّوِيلَةِ ؛ فَذَهَبْنَا إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَطَعْنَاهَا . وَمَا زِلْنَا  
 دَائِبِينَ<sup>(١)</sup> فِي الْعَمَلِ حَتَّى صَنَعْنَا زَوْرَقًا كَبِيرًا فِي خِلَالِ شَهْرٍ كَامِلٍ .  
 وَبَعْدَ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا ، أُسْتَطَعْنَا أَنْ نُنْزِلَ الزَّوْرَقَ فِي الْبَحْرِ . وَقَدْ  
 تَكَبَّدْنَا<sup>(٢)</sup> فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَنَاءٌ لَا يُوصَفُ . وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا شَهْرَانِ بَعْدَ  
 هَذَا ، حَتَّى أَتَمَمْنَا صُنْعَ الشَّرَاجِ وَالسَّارِيَةِ ، كَمَا أَنْجَزْنَا صُنْعَ السُّكَّانِ<sup>(٣)</sup>  
 وَقَدْ بَدَأْتُ الْجُهْدَ فِي تَدْرِيبِ « جُمُعَةٍ » عَلَى تَسْيِيرِ هَذَا الْمَرْكَبِ  
 الشَّرَاعِيِّ حَتَّى حَذَقَهُ وَأَتَقَنَهُ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْمَرْكَبِ الشَّرَاعِيِّ  
 عَهْدٌ ، وَلَمْ يَرَ لَهُ شَيْهًا طُولَ عُمرِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا  
 الْجَذْفَ وَحَدَهُ ؛ أَمَّا أُسْتِخْدَامُ الشَّرَاجِ وَالسُّكَّانِ ، فَذَلِكَ مَا لَمْ يَأْلُوهُ ،  
 وَلَمْ يَسْمَعُوا بِهِ . وَقَدْ أُكْسِبْتُهُ الْمَرَانَةَ قُدْرَةً عَجِيبَةً عَلَى تَسْيِيرِ مَرْكَبِنَا  
 الشَّرَاعِيِّ ، وَأَصْبَحَ - بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ - رُبَّانًا<sup>(٤)</sup> مَاهِرًا .

وَهَكَذَا تَمَّ لَنَا إِعْدَادُ الْمُدَّةِ لِلسَّفَرِ إِلَى وَطَنِ « جُمُعَةٍ » ، وَلَمْ  
 يُعْوِزْنَا<sup>(٥)</sup> شَيْءٌ مِنَ الْمَعْدَاتِ .

(١) مواظبين . (٢) تأسينا . (٣) البلة . (٤) قائد سفينة . (٥) لم ينقصنا .



## ١١ - حَرْبُ الْأَعْدَاءِ

وَمَضَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَدْ أَصْبَحَتِ الْجَزِيرَةُ  
- جِينْدِ - جَنَّةَ نَصْرَةَ<sup>(١)</sup> ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَتْنَى مُوحِشًا . فَقَدْ آتَسَى  
« جُمُعَةُ » بَعْدَ وَحْشَةٍ ، وَتَغَلَّبَ إِخْلَاصُهُ وَحُبُّهُ عَلَيَّ كُلِّ عَقَبَةٍ اعْتَرَضَتْنا  
فِي حَيَاتِنَا .

وَجَاءَ الْعَامُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ ، وَأَنَا أَتَرَقَّبُ الْخَلَاصَ مِنْ هَذِهِ  
الْجَزِيرَةِ . فَلَمَّا أَقْبَلَ الشِّتَاءُ ، وَضَعْنَا الزَّوَارِقَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ ، حَتَّى  
أَتَقَضَى « نُوقَمْبِرُ » وَ « دِيسْمِبِرُ » . ثُمَّ أَخَذْنَا نُهَيِّئُ الْأَسْبَابَ ،  
وَنَسْتَكْمِلُ مُمَدَّاتِ السَّفَرِ إِلَى وَطَنِ « جُمُعَةَ » .

وَلَمَّا لَجَدَانِ - فِي صَبَاحِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَقَدْ خَرَجَ « جُمُعَةُ »  
لِصَيْدِ السَّلَاحِ كَمَا ذَكَرْتُهُ - إِذْ مَادَ إِلَى مُسْرِعًا ، وَهُوَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ  
الدُّعْرِ ، وَيَصِيحُ خَائِفًا : « يَا لِهَوْلِ ، يَا سَيِّدِي ! »  
فَسَأَلْتُهُ : « أَيُّ هَوْلٍ تَعْنِي ؟ »

فَقَالَ : « ثَلَاثَةُ زَوَارِقَ تَدْتُونُوا إِلَيْنَا ، قَادِمَةٌ عَلَيْنَا . »

(١) جيلة خضراء .

فَظَلَّتْ أَطْمِئِنَّةُ وَأَسْرَى عَنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصْنَعِي لِمَا أَقُولُ ؛  
فَقَدْ كَانَ مُوقِنًا أَنَّ أَعْدَاءَهُ لَمْ يَمُودُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ إِلَّا لِيَبْحَثُوا عَنْهُ ، وَيَمَزُقُوا  
جِسْمَهُ ، وَيَشْوُوهُ عَلَى  
النَّارِ !



فَقُلْتُ لَهُ : « تَشَجَّعْ  
يَا « جُمُعَةُ » ؛ افْلَنْ  
مُفِيدَكَ الْجَزَعُ شَيْئًا ،  
وَلَنْ يُبْقِيَ الْأَعْدَاءَ عَلَى  
أَحَدٍ مِنَّا إِذَا ظَفَرُوا  
بِهِ . وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا

أَنَّ نُوْطَنَ نَفْسَيْنَا<sup>(١)</sup> عَلَى قِتَالِهِمْ . وَسَأَبْدُلُ نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ ، فَلَا تُخَالِفِي  
أَمْرًا . وَسَتَرَى كَيْفَ نَحْصُدُهُمْ<sup>(٢)</sup> بِرِصَاصِنَا حَصْدًا .  
وَمَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى أَعَدْتُ إِلَيْهِ شَجَاعَتَهُ ؛ قَبِي عَزْمَةٌ عَلَى أَنْ يَسْتَبْسِلَ<sup>(٣)</sup>  
فِي قِتَالِهِمْ ، حَتَّى نَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ أَوْ نَمُوتَ كَرِيمَيْنِ .

(١) نقويهما . (٢) نهلكهم . (٣) يعرض نفسه للموت

وَتَأْتِينَا لِمُحَارَبَتِهِمْ ، فَأَرْتَقَيْتُ قِمَّةَ الْجَبَلِ ؛ فَرَأَيْتُ - مِنْ خِلَالِ  
 مِنْظَارِي - وَاحِدًا وَعِشْرِينَ رَجُلًا جَالِسِينَ حَوْلَ النَّارِ . فَزَلْتُ إِلَى  
 سَفْحِ الْجَبَلِ <sup>(١)</sup> ، وَأَرْسَلْتُ « جُمُعَةً » لِيَتَعَرَّفَ مَا يَصْنَعُونَهُ ؛ فَعَادَ  
 إِلَيَّ - بَعْدَ وَاقِلٍ - وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ يَشُورُونَ أَحَدَ الْأَمْرَى عَلَى النَّارِ



لِيَأْكُلُوا لَحْمَهُ . فَذَهَبْتُ إِلَى الْغَابَةِ وَمَعِيَ « جُمُعَةٌ » ، وَاخْتَفَيْنَا بَيْنَ  
 أَشْجَارِهَا الْكثِيفَةِ ، حَتَّى أَصْبَحْنَا عَلَى مَسَافَةِ قَرِيبَةٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ ؛

فَرَأَيْنَا رَجُلًا أَيْبَضَ الْوَجْهَ، مُلْتَحِيًا، مَشْدُودَ الْوَتَاقِ، مَطْرُوحًا عَلَى الرَّمْلِ  
 فَصَبَرْتُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا شَرَعُوا فِي حَلِّ وَثَاقِهِ، أَمَرْتُ « جُمُعَةً »  
 أَنْ يُطْلِقَ الرَّصَاصَ مَعِيَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ . وَكَانَتْ مُفَاجَأَةً عَجِيبَةً ؛  
 فَقَدْ قَتَلَ « جُمُعَةً » - وَخَدَهُ - اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَجَرَحَ ثَلَاثَةً ،  
 وَقَتَلْتُ رَجُلًا وَاحِدًا وَجَرَحْتُ اثْنَيْنِ



وَمَا سَمِعَ الْأَعْدَاءَ  
 دَوَى الرَّصَاصِ، وَرَأَوْا  
 مَا حَلَّ بِأَصْحَابِهِمْ مِنْ  
 الْهَلَاكِ وَالْأَذَى، حَتَّى  
 تَمَلَّكَهُمْ الْخَوْفُ،  
 وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ

الذُّعْرُ؛ فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ<sup>(١)</sup>، وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَ بِالنَّجَاةِ . وَرَكِبُوا  
 زُورَقَيْنِ لِيَهْرُبُوا إِلَى بِلَادِهِمْ مِنْ هَذِهِ الصَّوَاعِقِ الَّتِي لَمْ يَرَوْا لَهَا،  
 فِي حَيَاتِهِمْ، مَثِيلًا . فَاقْتَرَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ الْأَيْبَضِ وَحَيِّتُهُ؛ فَوَجَدْتُهُ

(١) جَاءُوا إِلَى الْمَرْبِ .

أَقْرَبَ إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ إِلَى الْحَيَاةِ . فَكَكْتُ وَثَاقَهُ ، وَسَقَيْتُهُ وَأَطْعَمْتُهُ ،  
حَتَّى عَادَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ ، وَأَفَاقَ مِنْ إِغْمَاءَتِهِ ؛ فَشَكَرَ لِي صَنِيعِي أَحْسَنَ  
الشُّكْرِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ إِسْبَانِي الْأَصْلُ ، وَأَنَّ سُوءَ حَظِّهِ أَوْقَعَهُ  
أَسِيرًا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ .

### ١٢ - أَبُو جُنَيْمَةَ ،

وَرَأَى « جُنَيْمَةَ » زُورِقًا تَرَكَهُ الْأَعْدَاءُ ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ تَرْكَبَهُ  
لِنُطَارِدِهِمْ وَنَمْلًا قُلُوبَهُمْ رُغْبًا وَهَلْمًا . فَأَعْجَبَنِي اقْتِرَاحُهُ ، وَمَا وَصَلْنَا إِلَى  
الزُّورِقِ ، حَتَّى رَأَيْنَا فِيهِ أَسِيرًا ثَالِثًا . فَكَكْتُ وَثَاقَهُ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ  
أَنْهَضَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ ؛ فَوَجَدْتُهُ لَا يَتَمَسَّكُ ، مِنْ شِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ .



وَلَمْ يَرَ « جُنَيْمَةَ » هَذَا  
الْأَسِيرَ حَتَّى ارْتَمَى عَلَيْهِ  
يُقْبِلُهُ وَيَمَانِقُهُ ، وَقَدْ أَذْهَلَهُ  
الْفَرَسُ حَتَّى كَادَ يُسَلِّمُهُ إِلَى  
الْجُنُونِ . فَظَلَّ يَبْكِي  
وَيَضْحَكُ وَيَقْفِزُ وَيَرْقُصُ

وَيَفْرُكُ يَدَيْهِ ، وَيَمَضُ أُنَامِلَهُ ، وَيَلْطِمُ وَجْهَهُ ، وَيُعْنِي ، وَأَنَا أَحَاوِلُ أَنْ



أَسْتَوْضِحُهُ سِرًّا هَذَا  
الْحَبَالِ<sup>(١)</sup> ، وَهُوَ لَا  
يُضْنِي إِلَيَّ . ثُمَّ هَدَأَ  
قَلِيلًا ، وَالتَفَتَ إِلَيَّ  
قَائِلًا : « إِعْلَمَنَّ أَنَّ هَذَا  
الْأَسِيرَ هُوَ أَبِي . وَقَدْ  
أَثَقَدَهُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ .

فَكَيْفَ لَا يَتَمَلَّكُنِي الْفَرَحُ وَالطَّرْبُ ! »

فَتَرَكَتُهُ فِي فَرَجِهِ ، وَأَعْجِبْتُ بِهَذَا الْحُبِّ الْبَنَوِيِّ . وَقَدْ أَقْبَلَ  
« جُمُعَةً » عَلَى أَبِيهِ يُدْفِنُهُ وَيَتَمَهَّدُهُ — فِي حُنُوِّ الْوَالِدِ الشَّفِيقِ الْبَارِّ —  
وَيَفْرُكُ لَهُ سَاقَيْهِ اللَّتَيْنِ أَضْرَّ بِهِمَا الْوَثَاقُ ، وَيَسْقِيهِ تَارَةً ، وَيُطِئِمُهُ  
تَارَةً أُخْرَى ، حَتَّى أَعَادَ إِلَيْهِ قُوَاهُ .

فَأَمَرْتُ « جُمُعَةً » أَنْ يُعْنِيَ<sup>(٢)</sup> بِالرَّجُلِ الْإِسْبَانِيِّ — كَمَا عُنِيَ بِأَبِيهِ — فَلَمْ

(١) الجنون . (٢) يتم .



يَتَرَدَّدُ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِي .  
 ثُمَّ حَمَلْنَا الْإِسْبَانِيَّ  
 وَأَبَا « جُمُعَةَ » عَلَى لَوْجٍ  
 مِنْ الخَشَبِ ، لِعَجْزِهِمَا  
 عَنِ السَّيْرِ ، حَتَّى وَضَعْنَاهُمَا  
 فِي خِيْمَةٍ أَقْمَنَاهَا

بِالقُرْبِ مِنَ الحِصْنِ ، وَأَعَدَدْنَا لِكُلِّ مِنْهُمَا فِرَاشًا مِنَ القَشِّ . وَكَانَ



« جُمُعَةُ » خَيْرَ تَرْجُمَانٍ  
 يَنْقُلُ لِي مَا يَقُولُهُ أَبُوهُ  
 وَالْإِسْبَانِيُّ الَّذِي أَتَقَنَّ  
 لُغَةَ أَعْدَائِهِ ، لِطَوْلِ  
 عَشْرَتِهِ وَإِقَامَتِهِ بَيْنَ  
 ظَهْرَانِيهِمْ (١) .

ثُمَّ أَمَرْتُ « جُمُعَةَ » أَنْ يَدْفِنَ القَتْلَى ، حَتَّى لَا تَفْسُدَ جُشُومُهُمْ ،  
 فَتُعَدِّثَ رَائِحَتَهَا الْأَمْرَاضَ الخَبِيثَةَ ؛ فَقَامَ بِهَذَا العَمَلِ خَيْرَ قِيَامٍ .

## ١٣ - بَعْدَ فِرَارِ الْأَعْدَاءِ

وَقَضَيْنَا زَمَانًا طَوِيلًا ، وَنَحْنُ نَتَعَاوَنُ عَلَى زَرْعِ الْأَرْضِ ، وَتَوْفِيرِ أَسْبَابِ  
الرَّاحَةِ وَالرِّخَاءِ ، وَيَأْتِنِسُ بَمَضُنَا بَعْضُ . وَسُرْعَانَ مَا تَمَّتِ الْأَلْفَةُ بَيْنَنَا  
جَمِيعًا ، وَأَصْبَحْنَا أَصْفِيَاءَ مُتَحَابِّينَ .

وَقَدْ سَأَلْتُ أَبَا « جُمَعَةَ » ، ذَاتَ يَوْمٍ : « أَتُرَانَا<sup>(١)</sup> » فِي خَطَرٍ مِنْ



فَارِقِ أَعْدَائِنَا ، مَرَّةً

أُخْرَى ؟ » فَقَالَ لِي ،

« لِي لَهَجَةَ الْحَازِمِ

الْمُسْتَيْقِنِ<sup>(٢)</sup> : « كَلَّا ،

لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدَتِهِمْ

بَعْدَ هَذِهِ النَّكْبَةِ .

وَمَا أَحْسَبُهُمْ قَدْ نَجَوْا مِنْ

الْمَاصِفَةِ الَّتِي هَبَّتْ عَلَيْهِمْ ، فِي أَمْنَاءِ فِرَارِهِمْ . وَلَوْ أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنْهَا ،

لَمَا وَجَدُوا مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يَخْفِزُهُمْ<sup>(٣)</sup> إِلَى مُعَاوَدَةِ الْكِرَّةِ ؛

(١) أتعبنا . (٢) المثبت . (٣) يدهم .



فَقَدْ أَطَارَ دَوِيَّ الرِّصَاصِ عُقُولَهُمْ . وَسَيَّقُصُونَ عَلَى أَهْلِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ  
 مَا رَأَوْهُ مِنَ الصَّوَاعِقِ وَالرُّعُودِ الَّتِي أَفْنَتِ جَمَاعَةً مِنْ رِفَائِهِمْ . وَقَدْ  
 سَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَتَحَدَّثُ - فِي أَثْنَاءِ فِرَارِهِ - وَهُوَ مَذْهُوشٌ مِمَّا رَأَى ،  
 وَقَدْ مَلَأَتْهُ الْحَيْرَةُ وَالْمَجَبُّ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى تَعْلِيلٍ يُفَسِّرُ  
 بِهِ قُدْرَةَ أَعْدَائِهِ عَلَى قَذْفِهِمُ بِالصَّوَاعِقِ ، وَتَسْخِيرِ الرُّعُودِ وَالْفَلَكِ<sup>(١)</sup>  
 لِلْفِتْكَ بِمَنْ يُرِيدُونَ ، عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، دُونَ عَنَاءِ . «

وَقَدْ صَدَقَ الشَّيْخُ فِي تَكْهِنِهِ وَحَدْسِهِ<sup>(٢)</sup> ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ - فِيمَا بَعْدَ -  
 أَنَّ أَعْدَاءَنَا قَدْ أَذَاعُوا عَلَى بَنِي وَطَنِمْ - بَعْدَ أَنْ نَجَّوْا مِنَ الْغَرَقِ -  
 أَنْبَاءَ الصَّوَاعِقِ الَّتِي أَمْطَرْنَاهَا عَلَيْهِمْ ؛ فَمَلَأُوا قُلُوبَهُمْ رُغْبًا ، وَآيَقَنُوا  
 أَنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مَمْلُوءَةٌ جَنًّا وَعَفَارِيتَ ، فَلَمْ يَجْرُدُوا عَلَى الدُّمُوءِ مِنْهَا  
 بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ . عَلَى أَنَّي تَأَهَّبْتُ لِنِضَالِهِمْ<sup>(٣)</sup> ، وَتَرَقَّبْتُ عَوْدَتَهُمْ زَمَانًا  
 طَوِيلًا ، حَتَّى أَقْبَنْتُ بِأَنَّهُمْ يَنْسُوا مِنَ الْعَوْدَةِ . فَأَطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي ،  
 وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى التَّفَكِيرِ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي . وَمَرَّتْ بِنَا سِنُونَ عِدَّةٌ ،  
 وَنَحْنُ آمِنُونَ وَادِعُونَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْعَازِبَةِ<sup>(٤)</sup> . وَقَدْ سَهَّلَ عَلَيْنَا أَنْ

(١) استخدامهما وفهرهما . (٢) ظنه وتقديره . (٣) محاربتهم . (٤) البعيدة .

مُنَجَّرٍ<sup>(١)</sup> - مُتَمَاوِنِينَ - كُلِّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ .  
 وَقَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْإِسْبَانِيِّ أَنَّ عَدَدَ أَصْدِقَائِهِ - مِنَ الْإِسْبَانِيِّينَ  
 الَّذِينَ نَجَّوْا مِنَ الْفَرَقِ - يَبْلُغُ سِتَّةَ عَشَرَ ، وَلَدَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ  
 الْبُنْدُقِيَّاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ ، وَلَيْسَ يُعَوِّزُهُمْ<sup>(٢)</sup> إِلَّا الرَّصَاصُ وَالْبَارُودُ .  
 وَقَدْ حَاولُوا الْمَوَدَّةَ إِلَى بِلَادِهِمْ ؛ فَأَعْوَزَتْهُمْ الْمَعْدَّاتُ ، فَأَقَامُوا فِي  
 تِلْكَ الْبِلَادِ مُرْغَبِينَ<sup>(٣)</sup> . فَسَأَلْتُهُ : « أَتَرَأَاهُمْ يُبْلَوْنَ<sup>(٤)</sup> اقْتِرَاحِي ، إِذَا هَيَّأْتُ  
 لَهُمْ أَسْبَابَ السَّفَرِ ؟ »

فَقَالَ لِي : « لَيْسَ أَشْهَى إِلَيَّ نُفُوسِهِمْ مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ . »  
 وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ يَذْهَبَ مَعِ أَبِي « جُمُعَةً » لِمُقَابَلَتِهِمْ ؛ فَأَذِنْتُ لَهُ  
 فِي ذَلِكَ ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ لِي : إِنَّهُ سَيَكُونُ - هُوَ وَرِفَاقُهُ - رَهْنًا  
 إِشَارَتِي ، وَسَيَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْمَهْدَ بِالْوَفَاءِ لِي ، قَبْلَ أَنْ يُخْضِرَهُمْ إِلَى  
 جَزِيرَتِي . وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ ، رَكِبَ الْإِسْبَانِيُّ وَالشَّيْخُ زَوْرَقَ الْأَعْدَاءِ  
 بَعْدَ أَنْ زَوَّدْتُهُمَا بِكُلِّ مَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ ، مِنْ طَعَامٍ وَسِلَاحٍ ، وَرَجَوْتُ  
 لَهُمَا سَفَرًا سَعِيدًا وَعَوْدًا حَمِيدًا .

(١) تم . (٢) لا ينقصهم . (٣) مكرمين . (٤) ينفلون .

## الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

### ١ - الْمَفَاجَأُ

ظَلِمْتُ أَتَرَقَّبُ عَوْدَةَ الشَّيْخِ وَالْإِسْبَانِيِّ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ . ثُمَّ وَقَعَ لِي  
حَادِثٌ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرُ لِي عَلَى بَالٍ . فَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي عَلَى  
صُرَاخٍ « جُمُعَةٌ » ، وَهُوَ يَصْبِيحُ وَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ .

« سَيِّدِي ! سَيِّدِي ! لَقَدْ أَقْتَرَبُوا مِنَّا . »

فَأَرْتَدَيْتُ يَابِي - مِنْ فَوْرِي - وَأَسْرَعْتُ نَحْوَ الشَّاطِئِ .  
وَأَجَلْتُ لِحَاظِي فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ، فَرَأَيْتُ زَوْزَقًا شِرَاعِيًّا مِيمًا<sup>(١)</sup>  
بِجَزِيرَتِنَا ؛ وَهُوَ عَلَى بُعْدِ مِيلٍ وَنِصْفِ مِيلٍ مِنْهَا . فَأَمَرْتُ « جُمُعَةَ »  
أَنْ يَتَرَيَّثَ<sup>(٢)</sup> فِي الْأَمْرِ ، حَتَّى تَتَعَرَّفَ جَلِيَّتَهُ<sup>(٣)</sup> . وَأَكَّدْتُ لَهُ أَنْ  
رَاكِبِي الزَّوْزَقِ لَيْسُوا أَصْحَابَنَا الَّذِينَ أَرْسَلْنَا أَبَاهُ وَالْإِسْبَانِيَّ لِإِخْضَارِهِمْ ،

(١) قاصداً . (٢) يتمهل . (٣) حقيقته .

وليس في قُدرتنا أن نعرف : أعداء لنا أم أصدقاء ؟

ثمَّ أَرْتَقَيْتُ<sup>(١)</sup> قِمَّةَ الْجَبَلِ ، وَرَأَيْتُ - مِنْ خِلَالِ مِنْظَارِي -  
سَفِينَةً واقفةً على مَسَافَةٍ مِئَلَيْنِ وَنِصْفِ مِئَلٍ تَقْرِيبًا . وَقَدْ عَرَفْتُ  
- مِنْ أُسْلُوبِ بِنَائِهَا - أَنَّهَا سَفِينَةٌ مِنْ سُنَنِ بِلَادِنَا ؛ فَأَيَّقَنْتُ أَنْ  
خَلَاصِي مِنَ الْأَسْرِ قَرِيبٌ ، وَفَاضَ قَلْبِي بِشَرًّا وَسُرُورًا . وَاسْكَنْتَنِي  
شَعْرَتُ - فِي نَفْسِي - بِشَيْءٍ مِنَ الْإِتْقِبَاضِ يُنْغِصُ عَلَيَّ هَذَا الْفَرَحَ .  
فَقَدْ تَوَجَّسْتُ<sup>(٢)</sup> شَرًّا ؛ لِأَنَّي لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أُعَلِّلَ اقْتِرَابَ مِثْلِ  
هَذِهِ السَّفِينَةِ مِنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ ، عَلَى غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْمُرُورِ  
بِهَا . وَرَأَيْتُ - مِنْ الْحَزَامَةِ<sup>(٣)</sup> وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ - أَنْ أُتْرَيْتُ ؛ حَتَّى  
أَتَبَيَّنَ الْحَقِيقَةَ وَاضِحَةً ، لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا غُمُوضَ .

## ٢ - شَكْوَى الرَّبَّانِ

وَلَمَّا رَسَا الزُّورِقُ عَدَدْتُ رَاكِبِيهِ ؛ فَرَأَيْتُهُمْ أَحَدًا عَشَرَ مِنْ بَنِي

(١) صعدت . (٢) أحسنت . (٣) الحكمة .

وَطَنِي ، وَرَأَيْتُ - مِنْ يَنِيهِمْ - ثَلَاثَةَ مَشْدُودِي الْوَتَاقِ . ثُمَّ قَفَزَ  
خَمْسَةَ رِجَالٍ إِلَى الشَّاطِئِ يَقُودُونَ أَسْرَاهُمْ بِالْجِبَالِ ؛ فَلَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا ،  
وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللَّغْزِ الْعَامِضِ .  
فَقَالَ لِي خَادِمِي « جُمُعَةٌ » :

« لَأَشَكَّ فِي أَنَّهُمْ سَيَأْكُلُونَ أَسْرَاهُمْ كَمَا يَفْعَلُ بَنُو وَطَنِنَا .  
فَأَكَّدْتُ لَهُ أَنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ ، وَلَنْ يَتَعَدَى أَنْتِقَامُهُمْ مِنْ  
أَسْرَاهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ ؛ أَمَّا أَنْ يَأْكُلُوهُمْ فَذَلِكَ مَا لَا يَدُورُ لَهُمْ بِخَلْدٍ (١) .  
وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَرَكَوا الْأَسْرَى فِي مَكَانِهِمْ ، ثُمَّ ذَهَبُوا يَجُوبُونَ  
الْجَزِيرَةَ (٢) مُتَزَهِّينَ ، حَتَّى السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ . فَوَقَفُوا  
يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ أَشْجَارِ الْغَابَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَشْتَدَّتْ حَمَارَةٌ الْقَيْظِ ،  
وَجَهَدَهُمْ (٣) الْحَرُّ ؛ فَأَنْطَرَحُوا عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَسْتَسَامُوا لِلنَّوْمِ .  
فَدَنَوْتُ مِنَ الْأَسْرَى ، وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ مَصْدَرِ شَقَائِهِمْ ؛ فَارْتَمَدَتْ  
فَرَائِصُهُمْ (٤) مِنْ رُؤْيِي . وَلَكِنِّي طَمَأَنْتُهُمْ حَتَّى سُرِّي عَنْهُمْ (٥) ، وَرَأَوْا  
أَمَلًا كَبِيرًا فِي خَلَاصِهِمْ .  
وَقَدْ قَالَ لِي أَحَدُهُمْ ، وَقَدْ بَشَّرْتِ (٦) عَيْنَاهُ بِالنُّمُوجِ :

(١) لا يمر بمقتلهم . (٢) يجولون فيها . (٣) اتعبهم . (٤) فرحوا .  
(٥) ذهب خوفهم . (٦) استأثرت .

« أَنَا رُبَّانُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُقِلُّ هَؤُلَاءِ الْمَلَّاحِينَ . وَقَدْ نَارَ عَلَيَّ رِجَالِي وَتَمَرَّدُوا ، وَعَزَمُوا عَلَيَّ أَنْ يَتْرُكُونِي فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْعَازِبَةِ الْمُتَفْرِقَةِ ، مَعَ هَذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَيَّا<sup>(١)</sup> أَنْ يَشْرَكَاهُمْ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ . »

### ٣ - النَّصْرُ

فَسَأَلْتُهُ : « أَمَا هِدُنِي عَلَيَّ أَنْ تُقَلِّبَنِي وَصَاحِبِي « جُمُعَةٌ » فِي سَفِينَتِكَ ، إِذَا أَتَقَدْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَةِ<sup>(٢)</sup> ؟ »

فَقَالَ : « لَوْ تَمَّ ذَلِكَ ، لَأَصْبَحْتُ رَهْنًا إِشَارَتِكَ . »

فَرَسَمْنَا خُطَّةً بَارِعَةً لِلْقَبْضِ عَلَى الْعَصَاةِ ، وَالِاسْتِيلاءِ عَلَى زَوَرَقِهِمْ . وَقَدْ فَاجَأْنَاهُمْ وَهُمْ نَائِمُونَ ، وَأَوْهَمْتُهُمْ أَنَّ لَدَيَّ جَيْشًا كَبِيرًا ؛ فَاضْطَرُّوا أَكْثَرُهُمْ إِلَى الْإِذْطَانِ<sup>(٣)</sup> ، وَعَاهَدُونَا عَلَى الْإِخْلَاصِ .

ثُمَّ ذَهَبَ الرُّبَّانُ وَ « جُمُعَةٌ » وَرِفَاقُهُ إِلَى السَّفِينَةِ ، وَأَسْرُوا وَكَيْلَ الرُّبَّانِ وَمَنْ أَلْهَبَ مَعَهُ نَارَ الْفِتْنَةِ ، وَأَطْلَقُوا سَبْعَ طَلَقَاتٍ مِنْ

(١) امتناع . (٢) إذا خلصتكَ من هذا المكان الذي يمرضك لهلاك . (٣) التسليم .

مِدْفِعِ السَّفِينَةِ إِعْلَانًا لِإِنْتِصَارِهِمْ . فَلَمْ أَعُدْ أَتَمَلِّكُ مِنَ الْفَرَجِ ،  
وَلَمْ أَكُذْ أَصَدِّقُ مَا أَرَى ؛ فَأَرْتَمَيْتُ عَلَى فِرَاشِي ، وَأَسْتَسَلَمْتُ  
لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .



ثُمَّ جَاءَ الرَّبَّانُ  
وَمَا نَقَى ، وَقَالَ لِي :  
« إِنَّ السَّفِينَةَ  
وَرُبَّانَهَا وَمَلَّاحِيهَا  
لَيْسُوا إِلَّا مِلْكُ يَدَيْكَ

وَطَوَّعَ إِشَارَتِكَ . » فَأَيْقَنْتُ - حِينئذٍ - بِالْخِلاصِ ، وَغَلَبَتْنِي السَّرُورُ  
عَلَى أَمْرِي ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْبَسَ (١) بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .  
ثُمَّ أَفَقْتُ مِنْ ذُهُولِي وَدَهْشَتِي ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى الرَّبَّانِ أُعَانِقُهُ وَأَشْكُرُ  
لَهُ أَحْسَنَ الشُّكْرِ . وَقَدْ أَحْضَرَ لِي الرَّبَّانُ هَدَايَا فَخْرَةً ، وَأَطِيمَةً لَدِيدَةً ،  
وَرِثِيَابًا جَمِيلَةً ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ التَّحَفِ وَالطُّرْفِ (٢) .

(٢) الأشياء الغريبة الثمينة .

(١) أنطق .

## ٤ - مُعَدَّاتُ السَّفَرِ

وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَتَأَهَّبَ لِلسَّفَرِ . وَقَدْ اسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَى تَرْكِ زُعْمَاءِ الثَّوَرَةِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ؛ حَتَّى لَا يُفْسِدُوا عَلَيْنَا أَمْرَنَا . وَقَدْ شَرَحْتُ لَهُمْ وَسَائِلَ الْعَيْشِ وَأَسَالِبَ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْبِقَاعِ<sup>(١)</sup> ، وَعَلَّمْتُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ الْخُبْزَ ، وَكَيْفَ يَبْذُرُونَ وَيَحْصُدُونَ ، وَكَيْفَ يُجَفِّفُونَ الْعِنَبَ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ . ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُمْ أَنَّ سِتَّةَ عَشَرَ إِسْبَانِيًّا قَادِمُونَ عَلَيْنِهِمْ - بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ - وَتَرَكْتُ مَعَهُمْ كِتَابًا لِإِيْنِهِمْ أُوصِيهِمْ بِهِمْ خَيْرًا . وَأَخَذْتُ عَلَيْهِمُ الْمَوَاقِيقَ وَالْمَهُودَ أَنْ يَمِيشُوا جَمِيعًا مُتَعَاوِنِينَ مُتَحَايِينَ .

وَتَرَكْتُ لَهُمْ مَا كَانَ لَتِيٍّ مِنْ سِلَاحٍ ، وَهُوَ خَمْسَةُ مُسَدَّسَاتٍ ، وَثَلَاثُ بُنْدُقِيَّاتٍ ، وَثَلَاثَةُ سِوُوفٍ ، كَمَا تَرَكْتُ لَهُمْ كُلَّ مَا بَقِيَ عِنْدِي مِنْ الْبَارُودِ وَالرَّصَاصِ . وَشَرَحْتُ لَهُمْ : كَيْفَ يَتَمَهَّدُونَ الْعِزْيَ ؟ وَكَيْفَ يَخْلُبُونَ لَبَنَهَا ؟ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ الرُّبْدَ وَاللَّجِينَ ؟

(١) الأراضى .



## ٥ - فِي أَرْضِ الْوَطَنِ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ ، وَدَعَتْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ النَّائِبِيَّةَ ، وَأَخَذْتُ مَعِيَ  
قَلَنْسُوتِي - وَهِيَ مِنْ جِلْدِ مَاعِزٍ ، كَمَا عَلِمَ الْقَارِيءُ - وَمِظَلَّتِي وَبِئْغَائِي .  
وَأَخَذْتُ مَا كَانَ



عِنْدِي مِنَ النُّوُدِ ،

وَقَدْ عَلَاهَا الصَّدَأُ

لِطَوْلِ اخْتِجَابِهَا فِي

أَثْنَاءِ هَذِهِ الْأَعْوَامِ .

مِمَّ أَقْلَمْتُ بِنَا

السَّفِينَةَ فِي التَّاسِعِ

عَشْرٍ مِنْ « دَيْسَمْبَرِ » -

حَامَ ١٦٨٦ م بَعْدَ أَنْ

لَبِثْتُ فِي هَذِهِ

الْجَزِيرَةِ ثَمَانِيَةَ

وعِشْرِينَ عَامًا وَشَهْرَيْنِ وَتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا . وَقَدْ فَرِحَ « جُمُعَةُ بِمُرَاقَبَتِي إِلَى بِلَادِي ، وَآثَرَ صُحْبَتِي <sup>(١)</sup> عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .  
 وَمِنْ عَجِيبِ الْمُصَادَفَاتِ أَنَّ يَوْمَ خَلَاصِي مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ وَآ  
 يَوْمَ خَلَاصِي مِنَ الْأَسْرِ فِي رِحْلَتِي السَّابِقَةِ ، الَّتِي عَرَفَهَا الْقَارِيُّ التَّمْرِي  
 وَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » عَامَ ١٦٨٧ م وَصَلْتُ  
 إِلَى « لَنْدَنَ » بَعْدَ أَنْ غَبْتُ عَنْهَا خَمْسَةَ وَثَلَاثِينَ عَامًا .

#### ٦ - السَّفَرُ إِلَى « لِسْبُونَةَ »

وَرَأَيْتُنِي غَرِيبًا فِي بِلَادِي ، وَوَجَدْتُ وَالِدِي قَدْ مَاتَ مِنْذُ زَمَرٍ  
 طَوِيلٍ ، وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْرِفُنِي مِنْ رِفَاقِ الْقَدَمَاءِ ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ  
 إِلَى « لِسْبُونَةَ » ، لِأَتَعَرَّفَ وَسِيْلَةَ إِلَى الْإِسْتِنْفَاسِ عَمَّا آَلَتْ إِلَيَّ  
 دَسْكَرَتِي <sup>(٢)</sup> ، فِي « الْبِرَازِيلِ » . وَقَدْ عَجَّلْتُ بِالسَّفَرِ إِلَى « لِسْبُونَةَ »  
 - وَمَعِيَ « جُمُعَةُ » - فَبَلَغْنَاهَا فِي « أَبْرِيْلَ » .

وَعَثَرْتُ - لِحُسْنِ حَظِّي - عَلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي أَقْتَدَنِي فِي رِحْلَتِي  
 الْأُولَى حِينَ فَرَرْتُ مِنَ الْأَسْرِ ، وَكَانَ قَدْ شَاخَ وَتَرَكَ سَفِينَتَهُ لِوَلَدِهِ

(١) اختار أن يلازمي . (٢) قريبي .

فَدَسَّكَرْتُهُ بِقِصَّتِي ، وَسَأَلْتُهُ عَنِ دَسَّكَرَتِي فِي « الْبِرَازِيلِ » ؛ فَأَخْبَرَنِي  
 أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهَا مُنْذُ تِسْعِ سَنَوَاتٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأَلُ جُهْدًا فِي إِرْسَالِ  
 الرُّسُلِ إِلَى شُرَكَائِي ، حَتَّى ظَفِرَ - بَعْدَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ - بِنِصْبِي مِنَ  
 الْمَالِ وَالْبَضَائِعِ ؛ فَأَرَبْتُ<sup>(١)</sup> ثَرَوَتِي عَلَى خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنَيْهَاتِ .  
 وَقَدْ صَمِمْتُ بِذَلِكَ رَيْعًا سَنَوِيًّا - مِنْ ضَيْعَتِي بِالْبِرَازِيلِ - لَا يَقِلُّ  
 عَنْ أَلْفِ جُنَيْهِ ؛ فَأَجَزَلْتُ مُكَافَأَةَ الرُّبَّانِ الْمُحْسِنِ ، اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ  
 عَلَيَّ ، وَصَنِيعِهِ الَّذِي أَسْلَفَهُ إِلَيَّ .

وَبَقِيَتْ عِدَّةُ أَشْهُرٍ حَائِرًا مُضْطَرِبًا ، لَا أَدْرِي : إِلَى أَيِّ بَلَدٍ أَقْصِدُ ؟  
 ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَزَمِي عَلَى السَّفَرِ إِلَى « إِنْجِلْتِرَا » .

خاتمة القصة

## أهوال البرّ

١ - السّفْرُ إِلَى « مَدْرِيْدَ »

وَبَقِيْتُ مُتَرَدِّدًا فِي الطَّرِيقِ الَّتِي أَتَخَيَّرُ سُلُوكَهَا ، وَشَمَرْتُ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، بَعْدَ مَا لَقِيْتُهُ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَتَاعِبِ .  
وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ السّفَرَ فِي الْبَرِّ أَمْنٌ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السّفْرِ إِلَى « مَدْرِيْدَ » ، بِحَيْثُ أَجْتَازُ طَرِيقَ الْبَرِّ إِلَى « فَرَنْسَا » ، ثُمَّ لَا يَبْقَى عَلَيَّ إِلَّا مَسَافَةٌ قَصِيْرَةٌ أَعْبُرُهَا - فِي الْبَحْرِ - بَيْنَ « كَالِيَه » وَ « دُوْفَرَّ » .

وَقَدْ وُقِّتُ إِلَى رِفاقِ يَصْحَبُوْنِي فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيْلَةِ - وَكَانَ عَدَدُهُمْ سِتَّةً مِنْ السَّادَةِ ، وَخَمْسَةً مِنَ الْخَدَمِ - حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى « مَدْرِيْدَ » .

## ٢ - الذئبان

وَقَدْ اضْطَرَرْنَا إِلَى مُغَادِرَةِ « مَدْرِيْدَ » لِقُرْبِ حُلُولِ الشِّتَاءِ .  
 وَعَلِمْنَا أَنَّ الطَّرِيقَ - الَّتِي أَرْمَعْنَا<sup>(١)</sup> اجْتِيَازَهَا - خَطِرَةٌ فِي هَذَا  
 الْفَصْلِ . وَقَدْ كَانَ الشِّتَاءُ قَاسِيَ الْبُرُودَةِ ، وَرَأَيْنَا الثَّلُوجَ تَغْطِي الْجِبَالَ ؛  
 فَتَدِمْنَا عَلَى مُخَاطَرَتِنَا بِالسَّفَرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمَشْهُومِ .  
 وَكَانَ مَعَنَا دَلِيلٌ ذِكِيُّ شَجَاعٍ . وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ - عِدَّةَ أَيَّامٍ -  
 حَتَّى قَطَعْنَا مَرَجَلَةً كَبِيرَةً فِي رِحْلَتِنَا الْمُضْنِيَّةِ<sup>(٢)</sup> .



وَكَانَ الدَّلِيلُ  
 يَتَقَدَّمُنَا أَحْيَانًا ، ثُمَّ  
 يَمُودُ إِلَيْنَا لِيُرْشِدَنَا  
 إِلَى الطَّرِيقِ .  
 وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ ،  
 بَمَسَا عَنَّا  
 - كَمَا دَتِيهِ - فَانْقَضَ

(١) تهرنا . (٢) المصبة الشاقة .

عَلَيْهِ ذُبَانٍ . وَرَأَى الدَّلِيلُ هَلَاكَهُ مُحَقَّقًا وَشَيْكًا ؛ فَصَرَخَ مِنَ الْفَزَعِ ،  
فَأَذْرَكَهُ « جُمَعَةٌ » ، وَأَطْلَقَ رِصَاضَهُ عَلَى أَحَدِ الدُّبَّيْنِ ، فَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ  
يَفْتَرِسَ الدَّلِيلَ . وَفَرَ الدُّبُّ الْآخِرُ هَارِبًا حِينَ رَأَى مَصْرَعَ أَخِيهِ .

### ٣ - الدُّبُّ



فَمَرَأَى « جُمَعَةٌ » دُبًّا  
هَائِلَ الْجَرْمِ (١) مُقْبِلًا  
عَلَيْهِ ؛ فَاشْتَدَّ رُعْبُنَا .  
وَلَيْكِنَّ « جُمَعَةٌ »  
سَخِرَ مِنْهُ (٢) ،  
وَوَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ  
أَمَارَاتُ الْغَيْبَةِ (٣)  
بِمُصَارَعَةِ الدُّبِّ .  
فَمُ التَّفَّتْ إِلَى قَائِلَا :  
« أَرْجُو أَلَّا

(١) الجسم . (٢) هزى به . (٣) علامات الفرح .

تَسْكُرُوا عَلَيَّ صَفَائِي ؛ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُدَاعِبَ هَذَا الذَّبَّ ، لِأَسْرَى  
عَنكُمْ قَلِيلًا . فَحَذَارِ أَنْ تُطَلِقُوا عَلَيْهِ الرِّصَاصَ . «  
ثُمَّ قَذَفَهُ « جُمُعَةٌ » بِحَجَرٍ فِي رَأْسِهِ ، فَجَرَى الذَّبُّ مُسْرِعًا إِلَيْهِ  
فَصَعِدَ « جُمُعَةٌ » شَجَرَةً عَالِيَةً ، فَوَقَفَ الذَّبُّ تَحْتَهَا قَلِيلًا ، ثُمَّ  
تَسَلَّقَهَا<sup>(١)</sup> . فَأَمْسَكَ « جُمُعَةٌ » بِأَحَدِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ ، وَظَلَّ يَهْزُ  
الْمُضْنَ هَزًّا عَنيفًا ، وَهُوَ سَاخِرٌ مِنْ حَيْرَةِ الذَّبِّ ، الَّذِي ظَلَّ يَتَرَجَّحُ  
فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ . ثُمَّ صَوَّبَ « جُمُعَةٌ » رِصَاصَةً إِلَى أُذُنِ الذَّبِّ - بَعْدَ  
أَنْ أَرْقَصَهُ طَوِيلًا - فَقَتَلَهُ . وَقَدْ أَضْحَكْنَا كَثِيرًا .

#### ٤ - لَيْلَةٌ هَائِلَةٌ

وَرَأَيْنَا اللَّيْلَ يَقْتَرِبُ ، وَالنَّهَارَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقُضِيَ . فَضَاعَفْنَا السَّيْرَ  
مُسْرِعِينَ ؛ لِنَجْتَازَ الْمَسَافَةَ الْقَلِيلَةَ الْبَاقِيَةَ عَلَيْنَا فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ الْمُخِيفَةِ  
الْمُفْرَعَةِ . وَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ حَتَّى مَرَّتْ بِنَا خَمْسَةَ ذُنَابٍ ؛ فَلَمْ نَأْبَهُ  
لَهَا<sup>(٢)</sup> . وَكُنَّا مُتَحَفِّزِينَ<sup>(٣)</sup> - فِي كُلِّ لَحْظَةٍ - لِمُدَافَعَةِ الذَّنَابِ

(١) صعدنا . (٢) لم نهم بها . (٣) مستعدين .

الكثيرة ، التي سَتَعَرَضْنَا فِي الطَّرِيقِ ، كَمَا أَخْبَرَنَا الدَّلِيلُ .  
 وَمَا تَقَدَّمْنَا نَصْفَ فَرْسَخٍ (١) بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتَّى رَأَيْنَا ذُبَابًا كَثِيرَةً تَنْهَشُ  
 لَحْمَ جَوَادِ مَيْتٍ ، وَقَدْ مَرَّقَتْهُ تَمْرِيْقًا .

\* \* \*



وَلَمْ نَجْزِ مَرَحَلَةً  
 قَصِيرَةً أُخْرَى ،  
 حَتَّى مَلَأَتِ الذُّبَابُ  
 الْجَوَّ بِمَوَاتِنِهَا . وَرَأَيْنَا  
 أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ  
 ذَيْبٍ تَسْكُنُنَا (٢) ،

مُتَحَفِّزَةً لِلْوُثُوبِ عَلَيْنَا ، وَالْفَتَكِ بِنَا . فَأَطْلَقْنَا عَلَيْهَا الرِّصَاصَ ، وَصَرَخْنَا  
 صَرَخَاتٍ عَالِيَةً لِنُخِيفَهَا .  
 فَوَلَّتِ الذُّبَابُ هَارِبَةً .

\* \* \*

وَلَمَّا قَطَعْنَا مَرَحَلَةً أُخْرَى ، أَحَاطَتْ بِنَا قُطْعَانٌ كَبِيرَةٌ ، وَسَمِعْنَا

(٢) تحيط بنا

(١) نحو أربعة من الكيلومترات .



صَوْتِ رِصَاصَةِ بِالْقُرْبِ مِنَّا ، وَرَأَيْنَا جَوَادًا يُسَابِقُ الرِّيحَ ، وَتَعَدُّو فِي  
إِثْرِهِ جَمَهْرَةً مِنَ الذَّنَابِ ؛ فَعَلِمْنَا أَنَّ مَا لَهُ (١) الْمَوْتُ الْوَشِيكَ .  
وَمَا سِرْنَا خُطُواتِ قَلِيلَةٍ ، حَتَّى رَأَيْنَا جُمَّةَ جَوَادٍ آخَرَ قَطَعَتْهَا الذَّنَابُ



إِزْبَا إِزْبَا (٢) ، وَإِلَى جَانِبِهَا جُمْتِي فَارِسَيْنِ ، لَمْ تُبْقِ مِنْهُمَا الذَّنَابُ إِلَّا  
الْعِظَامَ . فَعَلِمْنَا أَنَّ أَحَدَهُمَا هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ الرِّصَاصَةَ الَّتِي سَمِعْنَا دَوِيَّهَا  
مُنْذُ حِينٍ .

وَإِنَّا لَعَائِرُونَ مَذْمُورُونَ مِنْ هَذَا الْمَنْظَرِ الْمَفْرِجِ الْهَائِلِ ، إِذْ أَقْبَلَ

(١) مصيره . (٢) قطعة قطعة .

عَلَيْنَا - مِنْ أَسْرَابِ الذَّنَابِ - مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِمُقَاوَمَتِهِ . فَقَدِ  
 اُكْتَفَفْنَا نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةِ ذَنْبٍ : فَاعْتَصَمْنَا<sup>(١)</sup> بِأَشْجَارٍ قَرِيبَةٍ .  
 وَبَعْدَ أَنْ تَرَجَّلْنَا ، ظَلَلْنَا نَطْلِقُ عَلَيْهَا الرِّصَاصَ ؛ فَتَرَاجَعَتْ ، ثُمَّ كَرَّتْ  
 عَلَيْنَا كَرَّةً أُخْرَى . وَمَا زِلْنَا نُحَارِبُهَا مُسْتَبْسِلِينَ ، حَتَّى قَتَلْنَا مِنْهَا نَحْوَ  
 سِتِّينَ ذَنْبًا ، وَكَسَبْنَا الْمَعْرَكَةَ - بَعْدَ جِهَادٍ عَنيفٍ - وَانْتَصَرْنَا عَلَى  
 الذَّنَابِ ، بِأَعْجُوبَةٍ لَا مَثِيلَ لَهَا فِي الْأَعَاجِبِ .

#### ٥ - خَاتِمَةُ الرَّحَلَةِ

ثُمَّ قَطَعْنَا الْمَرْحَلَةَ الْبَاقِيَةَ مُسْرِعِينَ ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ،  
 حَيْثُ أَتَمَمْنَا رِحْلَتَنَا - بَعْدَ ذَلِكَ - آمِنِينَ .  
 وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ - مَا حَيَّيْتُ - هَذِهِ الرَّحَلَةَ الْبَرِّيَّةَ الْمُخِيفَةَ  
 الَّتِي أَنَسْتَنِي أَهْوَالُهَا أَهْوَالَ الْبَحْرِ .  
 وَقَدْ آلَيْتُ<sup>(٢)</sup> عَلَى نَفْسِي أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِي فِي  
 دَعَا<sup>(٣)</sup> وَأَطْمِئِنَّا ، وَأَمِنَ وَسَلَامَ .

القصة التالية : « جلفرق بلاد الأقرام »

(١) لمانا . (٢) حلفت . (٣) راحة بـ

|                    |                |
|--------------------|----------------|
| ١٩٩٢/٨٥٩٥          | رقم الإيداع    |
| ISBN 977-02-3838-4 | الترقيم الدولي |

١/٩٢/١٢٥

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مكتبة الإسكندرية



# مكتبة الأطفال



## أساطير العالم

- ١ الملك ميداس .
- ٢ في بلاد المعجائب .
- ٣ القصر الهندي .
- ٤ قصاص الأثر .
- ٥ بطل أتينا .
- ٦ الفيل الأبيض .

## قصص علمية

- ١ أصدقاء الربيع .
- ٢ زهرة البرسيم .
- ٣ في الاصطبل .
- ٤ جبارة الغاية .
- ٥ أسرة السناجيب .
- ٦ أم سند وأم هند .
- ٧ الصديقتان .
- ٨ أم مازن .
- ٩ العنكب الحزين .
- ١٠ النحلة العاملة .

## أشهر القصص

- ١ جلفر في بلاد الأقزام .
- ٢ في بلاد المعالقة .
- ٣ في الجزيرة الطيارة .
- ٤ في جزيرة الجياد .
- ٥ روبنن كروزو .

## قصص عربية

- ١ حى بن يقطان .
- ٢ ابن

## قصص تمثيلية

- ١ الملك النجار .

## قصص فكاك هيت

- ١ عمارة .
- ٢ الأرنب الذكي .
- ٣ عقاريت اللصوص .
- ٤ نعمان .
- ٥ العرنيس .
- ٦ أبو الحسن .
- ٧ حذاء الطنبورى .
- ٨ بنت الصباغ .

## قصص من ألف ليلة

- ١ بابا عبد الله والدرويش .
- ٢ أبو صير وأبو قير .
- ٣ على بابا .
- ٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
- ٥ الملك عجيب .
- ٦ خسرو شاه .
- ٧ السندباد البحرى .
- ٨ علاء الدين .
- ٩ تاجر بغداد .
- ١٠ مدينة النحاس .

## قصص هندية

- ١ الشيخ الهندى .
- ٢ الوزير السجين .
- ٣ الأسيرة القاسية .
- ٤ خاتم الذكرى .
- ٥ شبكة الموت .
- ٦ في غابة الشياطين .
- ٧ صراع الأخوين .

## قصص شكير

- ١ العاصفة .
- ٢ تاجر البندقية .
- ٣ يوليوس قيصر .
- ٤ الملك لير .

Bibliotheca Alexandrina



0287580

مكتبة الإسكندرية



٥٥٥٠